الفصل الرابع

المدرسة
فى عصر المماليك

obeikandl.com

obeikandl.com

أسباب بناء المدارس- تمويل البناء - افتتاح المدارس - الفئات التى شاركت فى بناء المدارس - مدارس الأقاليم - عمارة المدرسة - وظائف المدرسة - استخدام المدرسة فى غير أغراض التعليم - الوظائف الخاصة بالمدرسة.

أسباب بناء المدارس :

مع بداية العصر الأيوبى شهدت مصر تطورا عظيما فى نظام التعليم ومناهجه وذلك نتيجة لإنشاء المدارس بمعناها الواسع من ناحية والاهتمام بمختلف الدراسات من ناحية أخرى مما أدى إلى ازدهار الحياة الفكرية والعلمية. ومع تحمس الأيوبيين للتعليم وإكثارهم من إنشاء المدارس فقد اتخذوا منها سندا ودعاية لتقوية نفوذهم السياسى على المستوى الإسلامى، وركيزة لتقوية وضعهم الداخلى فى مصر بانتصارهم للمذهب السنى.

وفى عهد الأيوبيين اكتمل نظام المدرسة وبناؤها، حتى جاء عصر المماليك ليتسلم المدرسة وقد اكتمل نظامها وأصبح ناضجا. كذلك ورث المماليك عن سادتهم الأيوبيين تشجيعهم للعلم والعلماء وحبهم وإقبالهم الشديد على بناء المدارس لأسباب مختلفة حتى أصبح من المعتاد طوال عصر المماليك أن يكون من آثار السلطان مدرسة أو أكثر وينسحب هذا القول على معظم سلاطين المماليك بداية بالمعز أيبك وانتهاء بالسلطان الغورى. كما لو كانت هذه المدارس من مظاهر السلطة وشعارها.

وإذا كان اهتمام المماليك بإنشاء المدارس له أسبابه الشخصية والاقتصادية والاجتماعية. فقد وجد كثير من طوائف المصريين الذين اهتموا بإنشائها، فكثرت أعدادها حتى قال ابن بطوطة «وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها».[1] على أن الظروف التى عاشتها مصر تحت حكم الأيوبيين والمماليك ساعدت بصورة مباشرة على قيام هذه النهضة العلمية. وسبقت الإشارة إلى دور الأيوبيين فى هذا المجال.

أما المماليك فإن انتصارهم فى المنصورة على حملة لويس التاسع جاء مبررا لاستلامهم مقاليد السلطة. ثم كان نجاحهم فى صد التتار الذين أسقطوا الخلافة العباسية تتويجا جديدا للمماليك بوصفهم القوة المدافعة عن العالم الإسلامى. ثم يضاف إلى ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة مما أكسب سلطة المماليك مركز الزعامة الروحية، فضلا عن زعامتها السياسية فى العالم الإسلامى[2].

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٢٧.
انظر ابن ظهيره الفضائل الباهرة ص ١٨٨، ١٩١.
القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٨ - سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٤٢، ١٤٣.

(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصرى ١٥٥، ١٥٦.

ومن الناحية الاقتصادية كانت مصر بفضل تحكمها فى مسارات تجارة العصور الوسطى، والأرباح التى جنتها من تجارة العبور بين الشرق والغرب[1]، فضلا عن مساهمة مصر فى النشاط التجارى العالمى، تتمتع باقتصاد قوى وازدهار حقيقى ساعدها على تدعيم النشاط الحضارى لاسيما ما يتعلق بالقدرة على إقامة المؤسسات التعليمية والدينية والاجتماعية. واستخدم الفائض من تلك الثروة الطائلة التى دعمتها موارد مصر الزراعية فى بناء المنشآت المدنية ذات الطابع الحضارى مثل القصور والمنشآت العمرانية وغيرها، والإنفاق بكرم وبذخ على الصناع والعمال فأتقنوا صناعتهم نتيجة لما لاقوه من حسن الجزاء.

ولذلك نجد أن معظم المدارس التى بنيت فى العصر المملوكى تتصف بالأناقة ولم يبخل منشئوها فى الصرف عليها فيذكر ابن دقماق أن القاضى ناصر الدين بن مسلم أرصد ستة عشر ألف دينار لعمارة مدرسته[2]. كما أن الأمير علاء الدين طيبرس الذى أنشأ مدرسته بجوار الجامع الأزهر سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م قد «تأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها حتى جاءت فى أبدع وأحسن قالب وأبهج ترتيب لما فيها من إتقان العمل وجودة الصناعة.. وبلغت النفقة عليها جملة كثيرة[3]».

وإذا كانت المدارس التى أنشأها الأمراء والأعيان على هذا النحو فمن الطبيعى أن تكون المدارس التى أنشأها سلاطين المماليك أكثر تأنقا وزخرفا نظرا لما ينفقونه من أموال. وقد بالغوا فى ذلك أحيانا حتى إن السلطان الناصر حسن قد أجهدته مصاريف مدرسته ففكر فى التوقف عن البناء، إذ يذكر أنه قال: «لولا أن يقال ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه[4]» كما وصفت هذه المدرسة بأنها من أعظم ما بنى فى ديار الإسلام من العمائر[5]. كذلك بلغت عمارة مدرسة المؤيد شيخ أكثر من سبعين ألف دينار[6]. أما مدرسة السلطان الغورى فقد بلغت جملة ما أنفقه عليها «نحو مائة ألف دينار»[7].

---

(١) انظر: نعيم زكى: طرق التجارة الدولية ص ٢٧٧ – ٢٧٩، ص ٣١٠ – ٣١٨.

(٢) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٩٩.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٨٢.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣١٥ – السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٩٢. – انظر أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ ٣ ص ٦٧.

(٥) المقريزى: الخطط جـ٢ ص٣١٥. أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٩ ص٢٣. ابن حبيب: درة الأسلاك جـ١ سنة ٧٥٨هـ. السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص١٩٢، ١٩٣. زكى محمد حسن: فنون الإسلام ص٧٣. حسن عبدالوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ١٦٥، ١٦٦.

(٦) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٢٨.

(٧) ابن اياس: بدائع الزهور جـ ٣ ص ٥٨.

ويتمشى كل ذلك مع نظرية ابن خلدون «فى أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة[1]» إذ إن مهنة التعليم والتدريس صنعة من جملة الصنايع التى تتأثر بالحالة الاقتصادية والحضارية وعلى نسبة العمران فى كل بلد من «الكثرة والقلة والحضارة والترف وتكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة»[2].

فإذا طبقنا هذا الرأى على مصر نجد أن الحياة العلمية كانت تتركز فى المدن وخاصة «بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين فاستحكمت فيها الصنايع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم»[3].

ولم يكن ذلك السبب الوحيد الدافع إلى الاستكثار من بناء المدارس وترتيب الأوقاف للصرف من ريعها على المدرسين والطلبة فثمة سبب آخر يتعلق بالحياة السياسية الداخلية فى عصر المماليك وما اتسمت به من عدم استقرار، إذ إن الأمراء، بل والسلاطين أنفسهم كانوا يتعرضون لحوادث المصادرة والسجن مما جعلهم يرون فى الأوقاف وسيلة وملجأ يلجأون إليه عند الضرورة وضمانا لذريتهم من بعدهم «وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما عليهم من الرق أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم بنظر عليها أو نصيب منها»[4].

ومع ذلك فقد وجد من السلاطين من صادر المدارس بأوقافها بحيلة أو بأخرى كما فعل الناصر محمد بن قلاوون بمدرسة السلطان العادل كتبغا[5]. وما فعله الناصر فرج بن برقوق بمدرسة جمال الدين الاستادار إذ رأى رغبة البعض فى هدمها والاستيلاء على أوقافها ورخامها ولكن عز على كاتم السر فتح الله أن يهدم بيتا أقيم لذكر الله ودراسة الفقه الإسلامى، فأقنع السلطان بتركها على ما هى عليه «والتزم له أن يصيرها ملكه ثم يوقفها هو فتنسب إليه ويبطل منها اسم جمال الدين فأصغى لذلك فتكلم فتح الله مع القضاة إلى أن صوروا فى ذلك صورة

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤١٠.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص ٤١٠.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص ٤١١.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص ٤١١.

انظر: غنيمه: تاريخ الجامعات ص ٢٤٣.

(٥) انظر: النويرى: نهاية الأرب جـ ٣ ص ٧٠٣. العينى: عقد الجمان جـ ١٥ سنة ٧٠٣هـ. المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٨١ – السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٩٥١. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٨، ٢٠٩. محمد رزق سليم: عصر سلاطين المماليك جـ ١م – ٢ – ص ٢٩٢.

وحكموا بصحتها ومحوا اسم جمال الدين وأثبت اسم الناصر وصارت الجمالية هى الناصرية»[1] ونجد نفس الشيء يحدث لما بناه الأمير يحيى بن عبد الرازق المتوفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م من المدارس والمساجد والربط فكلما غضب عليه من السلطة استبدلت معظم أوقافه «ثم لما يعيدونه يعيدونها وله بهذه النكبة عشرون مرة»[2].

ولكن ليس هناك شك فى أن تدين السلاطين والأمراء[3] – أو على الأقل رغبتهم فى الظهور بمظهر المتدينين كان من العوامل الرئيسية التى ساعدت على الإكثار من بناء المدارس فى عصر سلاطين المماليك. وقد عرف عن كثير منهم اختلاطهم بالعلماء ورعايتهم لهم كما وجد الكثير من السلاطين ممن لهم اشتغال بالعلم كالناصر حسن بن قلاوون إذ يذكر أنه اشتغل بالعلم كثيرا حتى نسخ دلائل النبوة للبيهقى بخطه»[4]. أما السلطان المؤيد شيخ فقد حَدَّث بصحيح البخارى عن السراج البلقينى»[5]. وكانت له بعض المجالس العلمية التى يعقدها عنده كل يوم أحد وأربعاء حيث يجتمع عنده العلماء فيتباحثون ويتناقشون فى مختلف العلوم «وهو فيما بينهم كأحدهم»[6] وغير هؤلاء من السلاطين والأمراء الذين اهتموا بالعلم والعلماء[7]. ولكن السلطان الغورى كان أكثرهم شهرة حيث كان يعقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة، حيث يجتمع العلماء والفقهاء ويتناقشون فى شتى فروع العلم والمعرفة التى شملت الفقه والتاريخ واللغة والظواهر الطبيعية والألغاز والنوادر وغير ذلك، نجده فى الكتابين اللذين صنفا فى هذه المجالس «الكوكب الدرى فى مسائل الغورى» و «نفائس مجالس السلطانية» وغالبا ما كان السلطان هو الموجه للمناقشة وطرح الأسئلة وفى بعض الأحيان يتصدى هو للشرح

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٤٨١ – انظر المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٠١، ٤٠٢ – السلوك جـ ٤ ق ١ ص ١٧٥، ١٧٦.

(٢) ابن الصيرفى: إنباء العصر ص ١٤٣، ١٧٢ – ١٧٥ – السخاوى: الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٣٤.

H. Rabie. Some Finacial Aspects of the Wagf. PP. 20-21.

(٣) لما كملت الدرة الطيبرسية وجاء المباشرون بحساب مصروفها لم ينظر فيه الأمير طيبرس وغسله بالماء وقال شيء خرجنا عنه لله لا نحاسب عليه. انظر المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٥٦.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٤٠ انظر: المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ١ ص ٥٢.

(٥) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٣ ص ٣٠١، ٣٠٩ – الشوكانى: البدر الطالع جـ ١ ص ٢٨٣.

(٦) العينى: السيف المهند ص ٢٧٤، ٢٧٥ – انظر السخاوى: الضوء اللامع جـ ٣ ص ٣٠٩.

(٧) انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٤٥٩ – إنباء الغمر جـ ١ ص ١٠٠. المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٧ – السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٨٥٩، جـ ٢ ق ٣ ص ٦٧٤ السخاوى: الضوء اللامع جـ ٣ ص ٧١، ٧٢– ص ١٧٥، ١٧٦ – جـ ٥ ص ١٢٧، ١٢٨، جـ ١٠ ص ١٦٧ – ابن دقماق: الجوهر الثمين ص ١٧١ ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٩٨، صفحات لم تنشر ص ٨٥، ١٦٢، ١٦٣

والتحليل[1]. كما كان الغورى يتفقد أخبار العلماء وأحوالهم إذ يذكر أنه فى إحدى هذه المجالس قرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات لأجل الشيخ جلال الدين السيوطى عندما علم بضعفه ومرضه[2].

وربما كان للدوافع الشخصية أثرها فى ترتيب الدروس بأحد الجوامع أو بناء بعض المدارس وذلك وفاء لنذر قطعة أحد السلاطين على نفسه مثلما حدث بالنسبة للسلطان حسام الدين لاجين[3] فى تعميره للجامع الطولونى وترتيب دروس الفقه والحديث به - أيضا السلطان مؤيد شيخ[4] الذى سجن بخزانة شمايل فعندما تولى السلطنة هدم هذا السجن وبنى مكانه مسجدا ورتب به الدروس والصوفية. وسنتناول ذلك بالتفصيل فيما بعد. كذلك هناك بعض الأسباب الداخلية التى أثرت على نمو الحركة التعليمية فى تلك الفترة ودفعتها إلى التقدم. فعلى الرغم من قيام المدارس فى العصر الأيوبى بدور فعال فى مقاومة المذهب الشيعى، إلا أنه حتى فى عصر المماليك وجدت بعض الرواسب والتأثيرات الشيعية ولذلك نجد أن المدرسة فى العصر المملوكى استمرت كذلك فى محاربتها للمذهب الشيعى والدعوة إلى المذهب السنى فى الأماكن النائية. ويذكر أن القاضى بهاء الدين القفطى المتوفى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٧م) «ولى قضاء إسنا وتدريس المدرسة المعزية بها وكانت إسنا مشحونة بالروافض فقام فى نصرة السنة وأصلح الله به خلقا وهمت الروافض بقتله فحماه الله منهم»[5] وفى سبيل مناهضته للشيعة والرد عليهم ألف كتاب «النصائح المفترضة فى فضائح الرفضة»[6]. كما ساعدت بعض العوامل الخارجية كغزوات المغول المتكررة فى الشرق والتى انتهت إحداها بسقوط الخلافة العباسية، وتعرض الشام لكثير من

---

(١) انظر: عبد الوهاب عزام: مجالس الغورى. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٤٢.

(٢) عبد الوهاب عزام: مجالس الغورى ص ٧٥.

(٣) انظر: المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٦٧. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠٦ - المنهل الصافى: جـ ٤ ص ٤٩٣ - ابن اياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٦. أحمد فكرى: ماجد القاهرة: المدخل ص ١٠٦، ١٠٧.

(٤) انظر ابن حجر: أنباء الغمر جـ ٣ ص ٥٦، ٥٧. المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٢٧. العينى: عقد الجمان جـ ١٩ سنة ٨١٨هـ.

(٥) ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٩، ٤٤٠. انظر: سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٤٣ - مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٩٠.

(٦) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ ٥ ص ٤٥٠.

هذه الغزوات التى استمرت حتى قيام دولة المماليك الجراكسة. وفى الغرب كانت الدولة الإسلامية فى الأندلس تلفظ أنفاسها الأخيرة إلى أن سقطت غرناطه آخر القواعد الإسلامية فى الأندلس[1]. كل هذه العوامل أدت إلى أن تصبح مصر مركزا لتجمع الكثير من العلماء من معظم البلاد الإسلامية حيث الأمن والطمأنينة والبيئة الملائمة لاستمرارهم فى نشاطهم مما دفع الحياة العلمية إلى الازدهار، وأن تصبح مصر مركز النشاط العلمى والثقافى فى العالم الإسلامى.

تمويل البناء :

ولما كانت المدارس وغيرها من المؤسسات التعليمية قد بنيت أساسا كنوع من البر والتقوى. فقد قام معظم المنشئين بالصرف عليها من خالص مالهم واشترطوا ألا يستخدموا فيها «أحدا بغير أجرة»[2] وأن توفى للصناع والفعلة أجورهم كاملة، ورغم ذلك فإن البعض استخدم سلطانه ونفوذه فى تسخير بعض الصناع أو الاستيلاء على الأموال بالغصب لإنفاقها فى فروع البر كما فعل الأمير أقبغا عبد الواحد فى بناء مدرسته التى أنشأها سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م[3] إذ اغتصب معظم الأرض التى أنشأها عليها والكثير من الأدوات والآلات اللازمة للعمارة، بل تعدى الأمر ذلك إذ ألزم الصناع من البنائين والنجارين والمرخمين وغيرهم من سائر الصناع والفعلة «أن يعمل كل منهم فيها يوما فى كل أسبوع بغير أجرة»[4]. ومع ذلك فقد عاملهم الشاد على العمارة بقسوة وشدة ولاقى الصناع فى ذلك الكثير من البلاء، ولم يكن أقبغا بأرحم منه بل يذكر أنه «ما نزل إليها قط إلا وضرب بها أحدا زيادة على شدة عسف مملوكه»[5].

كذلك يقال إن الأمير يحيى بن عبد الرازق استادار الظاهر جقمق كان يعامل الناس بالظلم والجور ومصادرة الأملاك ثم يعمر منها المساجد والمدارس[6].

واقتصادا فى التكاليف كان أصحاب السلطة يستخدمون الأسرى والمساجين فى العمل فى الحفر ودك الأساس وغير ذلك من الأفعال الشاقة. من ذلك ما يقال من أن الملك الصالح أيوب

---

(١) انظر: عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية: المجلد الأول ص ٥٢. سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٤١ – مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٨٩.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣١٢، ٣٧٨ – السلوك جـ ٣ ق ١ ص ١٨، جـ ٤ ق ١ ص ٣٤٧ – أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣٠٤.

(٣) انظر: حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ٥٨.

(٤) المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٣٨٢، ٣٨٣ – السلوك جـ٢ ق٢ ص٤٨٨، ٤٨٩– ص٤٥٥، ٤٥٦ – العينى: عقد الجمان جـ ١٧ سنة ٧٤٠هـ

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٤٤ – المنهى الصافى جـ ١ ص ٦٠٤. العينى عقد الجمان جـ ١٧ سنة ٧٤٠هـ – المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٨٣.

(٦) السخاوى: الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٣٣، ٢٣٤ – ابن الصيرفى: أنباء العصر ص ١٧٢، ١٧٥.

استخدم أسرى الفرنج[1] فى منشآته. كذلك يذكر المقريزى أن الأمير شيخون لم يسخر فى بناء مدرسته أحدا من «المقيدين الذين بالسجون كما هى عادة أمراء الدولة فى عمايرهم»[2].

وفى بعض الأحيان كان يحتفل ببدء بناء المدرسة فى موقع العمل، خصوصا إذا كان صاحب المدرسة أحد السلاطين أو كبار الأمراء، حيث يحتشد الأمراء والعمال والفعلة. أما المدرسة المؤيدية التى شرع السلطان المؤيد شيخ فى إنشائها فى أوائل شهر ربيع الآخر عام ٨١٨هـ (يونية ١٤١٥م) فقد بدأ السلطان العمل فيها بنفسه فقام «وأخذ الفأس بيده وحفر بعض الشىء وملأ به القفه»[3]. واشترك معه الأمراء والمماليك وأهل العلم من الفقهاء والعلماء والصوفية وغيرهم من أصحاب الوظائف حتى الأطباء والمؤذنين. فكان احتفالا كبيرا حيث اصطحبوا معهم الفيل والزرافة ومعهم الطبول والزمور. وشاركت كل هذه الفئات فى أعمال الحفر وكان لذلك المنظر من البهجة أن خرج الناس لمشاهدتهم والفرجة عليهم «فكان يوما بالهزل واللهو أشبه منه بالجد»[4].

وكان يقوم بالإشراف على العمائر السلطانية فى الغالب أحد الأمراء يعينه السلطان شادا للعمارة. ولم يسلم هؤلاء المشرفين من نقد الشعراء خصوصا إذا استخدموا القسوة فى معاملتهم مع العمال والفعلة[5].

وبعد الفراغ من بناء المدرسة يحتفل بافتتاحها احتفالا يليق ومركز منشئها وخاصة إذا كان من السلاطين أو كبار الأمراء، فيدعى العلماء والقضاة ومشايخ الصوفية وغيرهم من أهل العلم وكبار الأمراء والأعيان لحضور الاحتفال إيذانا بابتداء الدراسة. وجرى العرف فى ذلك أن يشتمل الاحتفال على إقامة موائد الطعام التى تزخر بالكثير من أنواع الأطعمة.. وبعد الفراغ من

---

(١) المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٠٥.

(٢) المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ١ ص ١٨، ١٩.

(٣) العينى: عقد الجمان جـ ١٩ سنة ٨١٨هـ - السيف المهند ص ٣٣٢ ابن الصيرفى: نزهه النفوس ص ٣٦٥.

(٤) المقريزى: السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣١٤.

(٥) قال أحد الشعراء عند افتتاح مدرسة السلطان الظاهر برقوق يصف ما أنجزه الأمير جركس الخليلى الشاد على العمارة من السرعة فى العمل.

وبالخليلى قد راجت عمارتها ... فى سرعة بنيت من غير ما مهل
كم أظهرت عجبا أسواط حكمته ... وكم غدت مثلا ناديك من مثل
وكم صخور تخال الجن تنقلها ... فإنها بالوحا تأتى وبالعجل

انظر: القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٦٨ – ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣١٣، ٣١٤.
أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٣٥.
وحا: بمعنى السرعة. أنظر: الأب لويس معلوف: المنجد.

الأكل يمد سماط الحلوى والفاكهة، وأن تملأ فسقية المدرسة بالماء المحلى بالسكر والليمون. وغالبا ما يبدأ العلماء والقضاة وكبار الأمراء بالجلوس على السماط وبعد ذلك يترك ما بقى للعامة فتأكل وتتناهب ما يتبقى منه[1].

وكان الاحتفال ذا طابع دينى فيقوم أحد العلماء أو القضاة بإلقاء خطبة يذكر فيها مناقب واقف المدرسة ومآثره، ثم يختار إحدى الآيات القرآنية التى يتناسب معها الحفل وتكون الآية وتفسيرها محورا للمناقشة والمناظرة[2]. ويعقب ذلك أن يقوم القراء بتلاوة القرآن الكريم والدعاء للواقف، وغالبا ما يقوم منشئى المدرسة بالإنعام على من حضر الاحتفال من العلماء بالخلع والتشاريف لاسيما من يعين منهم للتدريس. وفى بعض الأحيان يقوم السلطان بالإنعام بالخلع على من شارك فى بناء المدرسة من الشادين والمهندسين والصناع، وعلى المماليك الذين باشروا العمل أثناء البناء. فقد خلع السلطان برقوق على الأمير جركس الخليلى وعلى العلم شهاب الدين المهندس «وأركبا فرسين بقماش ذهب وخلع على خمسة عشر من مماليك الخليلى وأنعم على كل منهم بخمسمائة درهم وخلع على مباشرى العمارة وشاديها وعلى المهندسين والبنائين»[3].

ثم يبدأ الافتتاح الفعلى بأن يقوم شيخ المدرسة بإلقاء درسه بحضور الجميع إلى أن ينتهى منه، ويستمر الاحتفال فى المناقشة والبحث فى المسائل الدينية والعلمية. إذ يذكر فى احتفال المؤيد شيخ بمدرسته وبعد أن خلع على الشيخ الديرى مدرس الحنفية «جلس بالمحراب والسلطان وولده عن يساره والقضاة عن يمينه ويليهم مشايخ العلم وأمراء الدولة فألقى درسا تجاذب فيه أهل العلم أذيال المناظرة حتى قرب وقت الصلاة ثم انفضوا»[4].

---

(١) انظر: المقريزى: السلوك: جـ ٣ ق ١ ص ٢٨، جـ ٣ ق ٢ ص ٥٤٧، جـ ٤ ق ١ ص ٥٠٨ الخطط جـ ٢ ص ٣٢٩، ص ٤٠٠، ص ٤٠٣. ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣١٣، ٤٢٤، جـ ٢ ص ٣٩٩ – العينى عقد الجمان جـ ١٩ سنة ٨٢٢هـ – ابن دقماق: الجوهر الثمين ص ١٨٢

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٤٣ – المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٣٥ القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٨ – ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٣٨٣، ص ٤٥٠ – السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٩٣.

ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٥٥، صفحات لم تنشر ص ٣٨ – سعيد عاشور المجتمع المصرى ص ١٤٣.

(٢) انظر ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣١٤، جـ ٢ ص ٣٩٩ – المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٥٤٧ – العينى: عقد الجمان جـ ١٩ سنة ٨٢٢هـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٤٤ ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٥٠.

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٥٤٧ · انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٤٣، ٢٤٤ – المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٣٥.

(٤) المقريزى: السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٥٠٩ · ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٥٠.

وغالبا ما يقوم المدرسون بإلقاء دروسهم بحضرة السلطان أو منشىء المدرسة، وفى بعض الأحيان يقوم بعض الشعراء بإلقاء بعض القصائد فى مدح المنشئ ومدرسته ثم يخلع عليهم بالتشاريف[1].

ويعطينا محيى الدين ابن عبد الظاهر وصفا شيقا لاحتفال السلطان قلاوون بافتتاح مدرسته، فقد عهد السلطان إلى استاداريته بترتيب مهام الحفل والإشراف على إعداد السماط فنقلوا إليه كل شىء «يمير الفقيه والفقير والملك والأمير من رواتب وأسمطة وغرائب أطعمة متنوعة.. ولم يبق شىء من الأصناف التى يحصل بها التكاثر ويكثر لها التحصيل إلا شمله الاستنفاد وغزرت له المواد»[2]. ثم قام المشرفون على الاحتفال بتفريق الخلع والتشاريف على القضاة الأربعة والمدرسين والمعيدين وأصحاب الوظائف وعلى كل من شارك فى بناء المدرسة وتم إحياء الليلة «بقراءة القرآن الكريم والبحث فى المسائل والاستدلال، والشموع توقد والبخورات تستنفد والأدعية إلى الله لمولانا السلطان ترفع فتسمع»[3]. ثم دخل السلطان إلى المدرسة ومعه أبناؤه وكبار الأمراء ورجال الحاشية فجلس السلطان فى المحراب «على الأسمطة الممتدة من المحراب إلى البركة فأكل الناس بين يديه وفرقت النوالات على الفقهاء والفقراء وعلى كل ذى مسكنة[4]. وبعد الانتهاء من ذلك كله قام المدرسون واحدا بعد الآخر فى ذكر الدروس بين يدى السلطان وعند الانتهاء من ذلك «قرأ القراء صوتا واحدًا فملئوا الدنيا بحسن أصواتهم وطيب أنغامهم»[5]. أما الأمير جمال الدين الاستادار فقد اتبع تقليدا جديدا عند افتتاح مدرسته سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م إذ استمر الاحتفال سبعة أيام فكان يحضر فى كل يوم منها عند أحد المدرسين المعينين للتدريس فيها ويستمر إلى أن ينتهى المدرس من إلقاء الدرس ثم يخلع عليه[6].

ولم يكن بناء المدارس قاصرا على السلاطين والأمراء فقط بل شاركهم كثير من الفئات وأنفقوا عن سعة فى سبيل إنشاء العديد من المدارس. ولعل دوافعهم فى ذلك هى نفس الدوافع التى من أجلها قام السلاطين والأمراء بإنشاء مدارسهم، ربما مع بعض الاختلافات البسيطة. بل إن هناك بعض الطوائف من غير المصريين قد ساهمت فى بناء المدارس مثال ذلك مدرسة ابن رشيق التى بنيت سنة بضع وأربعين وستمائة[7]. (فى الأربعينات من القرن الثالث عشر) وهى مدرسة

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٨ - السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٤.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص ١٢٦.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص ١٢٦، ١٢٧.

(٤) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص ١٢٧.

(٥) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص ١٢٧، ١٢٨.

(٦) انظر: ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٩٩، ٣٤٠ - المقريزى: السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٧٨ - الخطط جـ ٢ ص ٤٠٠، ٤٠١.

(٧) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٤.

ذات صفة خاصة تميزها عن باقى مدارس مصر. حقيقة أشرف على بنائها والتدريس بها القاضى ابن رشيق ولكن خلافا عما حدث فى كل المدارس أن الممول لها لم يكن فردا معينا ولكن قام بتمويلها طائفة من طوائف التكرور يسمون بالكانم كانوا يمرون بمصر فى طريقهم لأداء فريضة الحج ودفعوا لابن رشيق المال الذى بناها به وخصصت هذه المدرسة للطائفة المالكية «وصار لها فى بلاد التكرور سمعة عظيمة يبعثون إليها فى غالب السنين بالمال»[1]. ومن الفئات التى شاركت فى بناء المدارس بعض أميرات البيتين الأيوبى والمملوكى. ويبدو أن دافعهن إلى ذلك كان تمشيا مع الاتجاه السائد والذى كان يضفى عليهن المزيد من صفات المجد والصلاح والتقوى بصرف النظر عن بعض المظاهر الأخرى التى لازمت بعض السلاطين والأمراء مثل المباهاه والتفاخر أو الخوف من المصادرة. ومن بين المدارس التى أنشأتها الأميرات الأيوبيات.

المدارس القطبية: أنشأتها عصمت الدين خاتون مؤنسة القطبية ابنة السلطان الملك العادل الأيوبى، بنت المدرسة الأولى فى سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م بأول حارة زويلة مما يلى الخرنشف فى رحبة كوكاى ووقفتها على الفقهاء الشافعية وبها متصدر للقراءات[2]. وأنشأت المدرسة الثانية فى نفس الحارة ولكن يبدو أنها بنيت بعد وفاتها إذ يذكر أنها تركت مالا جزيلا وأوصت ببناء مدرسة فبنيت هذه المدرسة ورتب فيها درس للشافعية ودرس للحنفية[3] - ومما يؤكد هذا القول- أى وجود مدرستين باسمها - ما ذكره المقريزى عند تحديده مكان المدرسة العاشورية أنها «بحارة زويلة من القاهرة بالقرب من المدرسة القطبية الجديدة»[4]. والأميرة عصمت الدين منشئة هذه المدارس من المشتغلات بعلم الحديث، يذكر أبو المحاسن أنها روت الحديث بإجازة من عفيفة الفارقية وعين الشمس الثقفية كما قامت أيضا بتدريسه إذ يذكر أنه سمع منها الحافظ فتح الدين بن سيد الناس وأولاد ابن الظاهرى والطلبة فى روايتها عن عين الشمس[5]. كما قامت السيدة عاشوراء بنت ساروح الأبدى بشراء دار ابن جميع الطبيب ووقفتها مدرسة على فقهاء الحنفية[6].

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٤ - ابن دقماق. الانتصار جـ ٤ ص ٩٦.

بلاد التكرور كان يطلقها العامة على بلاد مالى وهذه المملكة فى جنوب الغرب متصلة بالبحر المحيط، والكانم تقع بلادهم بين أفريقية وبرقة ممتدة فى الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط.

القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٨٠.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٠.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٧.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٧.

(٥) أبو المحاسن: النهل الصافى جـ ٥ ص ٤٢٥، ٤٢٦.

(٦) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٨.

وقامت أميرات العصر المملوكى بنفس الدور ففى سنة ٧٥١هـ (١٣٥٠م) أنشأت الست أيدكن زوجة الأمير سيف الدين بكجا مدرسة سميت بالمدرسة الصغيرة[١]. وفى نفس سنة ٧٦١هـ/(١٣٥٩م) أنشأت خوند تتر الحجازية ابنة الناصر محمد بن قلاوون مدرستها المعروفة بالمدرسة الحجازية وجعلت بها درسين للشافعية والمالكية، وتولى تدريس الشافعية شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى، وزودت المدرسة بخزانة كتب، وجعلت بها منبرا لخطبة الجمعة، وأنشأت بجوارها مدفنا لها، ومكتبا لتعليم الأيتام. ووقفت على هذه المدرسة عدة أوقاف لصرف مرتبات العاملين بها والتوسعة عليهم فى المناسبات[٢]. كما أنشأت أم السلطان الأشرف شعبان مدرسة فى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م.وقررت فيها دروسا للشافعية والحنفية[٣]. أما خوند مغل زوجة السلطان الظاهر جقمق فقد بنت مدرسة وزاوية للشيخ مدين وصرفت عليها أموالا كثيرة[٤].

وكان التجار أصحاب الثروات الطائلة من بين الفئات التى أقامت المدارس. وربما كان الدافع إلى ذلك الرغبة فى نيل الثواب، بجانب الرغبة فى الظهور بمظهر الصلاح والتقوى خوفا من مصادرة أموالهم على يد المماليك كما حدث عدة مرات.

ومن أهم مدارسهم: مدرسة المحلى على شاطئ النيل أنشأها رئيس التجار برهان الدين إبراهيم وأنفق على بنائها أكثر من خمسين ألف دينار[٥]. أما المدرسة المسلمية فقد أنشأها القاضى ناصر الدين مسلم الكارمى كبير التجار ومات فى سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤م) ولم يتم بناؤها، فأوصى قبل موته بتكملتها وعين الأموال اللازمة لها ووقف عليها دورا وأرضا بمدينة قليوب فأكملها وصية كافور الرومى. وكان من شروط الواقف أن يكون بها درسان على مذهبى مالك والشافعى ومكتب لتعليم الأيتام[٦]. كذلك أنشأ محمد بن الحسين بن الكويك التكريتى من تجار الكارم مدرسة كبيرة بمصر وجعلها دارا للحديث ووقف عليها أوقافا كثيرة[٧].

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٣.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٨١، ٣٨٢.

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ١ ص ٢١٠ – الخطط جـ ٢ ص ٣٩٨، ٣٩٩.

أبو المحاسن: النهل الصافى جـ ٢ ص ٢٠٨.

(٤) ابن الصيرفى: أنباء العصر ص ٤٦٤، ٤٦٦.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٧، ٣٦٨.

(٦) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٩٩ – الخطط جـ ٢ ص ٤٠٠.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٤٢٩.

ويمكن إدراج المدارس التى أنشأها بعض القضاة ضمن مدارس التجار على أساس أن بعض أولئك التجار كانوا يجمعون بين التجارة والعلم، ومن ثم فإن إدراج مدارس الخروبية ضمن مدارس التجار برغم توليهم لمناصب القضاء يبدو منطقيا لأن شهرة الخروبية فى التجارة فاقت شهرتهم فى مجال العلم. وقد قامت عائلة الخروبى ببناء ثلاث مدارس منها المدرسة التاجية الخروبية أنشأها القاضى تاج الدين بن الخروبى وأنشأ بجانبها مكتب سبيل ورتب بها درسا للحديث فقط[1]. وأنشأ القاضى عز الدين الخروبى المدرسة العزية الخروبية على ساحل النيل[2]. وأنشأ القاضى بدر الدين بن الخروبى المدرسة البدرية الخروبية وذلك بعد سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م). وجعل مدرس الفقه بها الشيخ بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن، والمعيد الشيخ سراج الدين عمر البلقينى. وشرط بدر الدين فى مدرسته ألا يلى بها أحد من العجم وظيفة من الوظائف[3].

وشارك بعض العلماء فى إنشاء المدارس وقاموا بالتدريس فيها هم أو أبناؤهم. ويغلب على الظن أن الدوافع وراء إنشاء العلماء لتلك المدارس كان دينيا وعلميا بحتا ومن هذه المدارس التى أنشأها العلماء: مدارس آل البلقينى. فقد أنشأ شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى مدرسة فى سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م بالقرب من منزله ودفن بها سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م. كذلك دفن بها ابنه الشيخ بدر الدين محمد[4]. وأنشأ الشيخ ولى الدين البلقينى مدرسة بجوار المدرسة الشريفية، يذكر السخاوى فى أحداث سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م أن الشيخ ولى الدين كان يعقد بها مجالس للوعظ[5].

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٧. ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٩٩.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٨٦، ٨٧. ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٩٩.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٨٧ ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٩٨؛ ٩٩ - المقريزى. الخط جـ ٢ ص ٣٦٨، ٣٦٩.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٨٩ + ح ٢ نفس الصفحة، جـ ١٣ ص ٢٩ - ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٧ ص ٥١، ٥٢ ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ١٧١.

(٥) السخاوى: التبر المسبوك ص ٣٨٩.

انظر ابن الصيرفى: إنباء العصر ص ٤٦٣.

أما المدرسة الصاحبية البهائية فقد بدأ في إنشائها الصاحب بهاء الدين في سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ولما كملت ولى تدريسها ولده الصاحب فخر الدين[١]. وأنشأ الشيخ الإمام مجد الدين الخليلي في شهر ذي الحجة سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) المدرسة المجدية الخليلية ووقفها على الفقهاء الشافعية، ورتب بها مدرسا ومعيدين وعشرين طالبا ورتب بها بعض الموظفين، إماما ومؤذنا وقيما. ووقف عليها بعض الأراضي والبساتين ورباعا بمدينة مصر[٢]. وقام كذلك قاضي قضاة الحنابلة أحمد بن إبراهيم بإنشاء مدرستين إحداهما مجاورة لبيته المجاور لباب سر المدرسة الصالحية بين القصرين، ومدرسة أخرى مجاورة لبيته الآخر بشبرا الخيمة[٣]. وطبيعي أن مدارس العلماء كانت تهتم بتدريس مذاهب العلماء الذين إنشئوها وأن يكون فقه ذلك المذهب هو الدرس الأساسي بتلك المدارس، كما ارتبطت العلوم التي كانت تلقى فيها باهتمامات منشئيها سواء كانت منصبة على الفقه أم الحديث أو غير ذلك من العلوم. عموما إذا فرض وثبت تدريس الفقه في أحد تلك المدارس التي أنشأها قاضي قضاة الحنابلة تكون أول مدرسة بمصر يدرس فيها الفقه الحنبلي خارج المدارس الرباعية التي تشمل تدريس الفقه على المذاهب الأربعة. إذ لم نجد طوال عصري الأيوبيين والمماليك أية مدرسة قامت لتدريس الفقه الحنبلي فقط، أو كمدرسة ثنائية بين الحنابلة وأي مذهب آخر.

ومن مدارس العلماء التي خصصت لتدريس الحديث؛ دار الحديث المراغية التي أنشأها الشيخ شمس الدين المراغي على شاطيء النيل[٤]. ويبدو أن الشيخ المراغي كان من المهتمين أو المشتغلين بعلم الحديث إذ إن دور الحديث ظلت على قلتها، ويبدو أنه لم تنشأ دار للحديث مستقلة بعد دار الحديث الكاملية سوى هذه الدار والمدرسة التاجية الخروبية ومدرسة ابن الكويك.

وجدت أيضا بعض المدارس للعلماء كمدرسة ابن السديد[٥] والمدرسة القيسرانية[٦] كما قام بعض الأطباء بإنشاء بعض المدارس كالمدرسة المهذبية[٧] ومدرسة ابن المغربي. كذلك يمكن اعتبار

---

(١) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٩٥.

(٢) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٩ – ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٩٦

(٣) ابن الصيرفي: إنباء العصر ص ٤٥٠، ٤٥٣.

(٤) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٩٩.

(٥) اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ٣ ص ٣٩٣.

(٦) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٣.

(٧) المقريزي: الخطط ص ٢ ص ٣٩٦.

المدرسة الجاولية التى أنشأها الأمير علم الدين سنجر ٧٢٣هـ/١٣٢٣م من مدارس العلماء لأنه كان من المشتغلين بالحديث وروى وصنف شرحا كبيرا على سند الشافعى وأفتى وكتب خطة على فتاوى عديدة[١].

وقد حظيت بعض مدارس العلماء باهتمام السلاطين إذ خصص السلطان المؤيد شيخ مبلغا قدره من الأنصاف الفضة ألفا نصف وخمسمائة تصرف فى كل سنة للصرف منها على المدرسة العينية، إذ جاء فى حجة وقف ذلك السلطان ما نصه «يعطى هذا المبلغ المذكور وهو ألف نصف اثنان وخمسمائة نصف لسيدنا الشيخ بدر الدين محمود العينى المشار إليه منشىء المدرسة المذكورة وناظرها، يصرفه فى مصالح المدرسة المذكورة على ما يراه ويؤدى إليه اجتهاده على الوجه الشرعى»[٢]. وغالبا كانت هذه الإعانة السنوية التى تصرف لمدرسة العينى ناتجة عن العلاقة الشخصية بين الشيخ بدر الدين العينى والسلطان المؤيد شيخ.

وشارك بعض المسالة وهم الفئة الذين اعتنقوا الإسلام حديثا فى بناء بعض المدارس لدراسة فقه الدين الإسلامى الذى اعتنقوه لاسيما وأن كثيرا منهم شارك فى بعض الوظائف الهامة بل تولوا منصب الوزارة. ولعل الدافع إلى ذلك هو الرغبة فى الظهور بمظهر المتحمسين للدين الإسلامى العالمين به والعاملين على نشره خصوصا أنهم بعد إسلامهم كان يعلق بأسمائهم إما لقب القبطى أو الأسلمى. ولعل ذلك راجع إلى أن المصريين فى تلك الفترة لم ينظروا بعين الاطمئنان والثقة فيهم.

ومن هذه المدارس على سبيل المثال: المدرسة البقرية التى أنشأها شاكر بن غبريان بن عبد الله البقرى سنة ٧٤٦هـ (١٣٤٥م) بالقرب من جامع الحاكم وجعلها للفقهاء الشافعية وقرر فى تدريسها الشيخ سراج الدين المعروف بابن الملقن، كما رتب بها ميعادا[٣] للوعظ. أما مدرسة ابن الغنام فقد أنشأها عبد الله بن شاكر بن عبد الله كريم الدين القبطى ويعرف بابن الغنام. ولى الوزارة فى عهد السلطان الأشرف شعبان وجعل من داره التى بالقرب من الجامع الأزهر مدرسة[٤]. وأنشأ تاج الدين أبو غالب الأسلمى القبطى المتوفى سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م مدرسة على

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٧.
انظر: ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٤٢، ١٤٣.
(٢) حجة السلطان المؤيد شيخ ٤٣٨ أوقاف.
(٣) انظر: المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٠.
ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٦٥، ٦٦.
(٤) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٥ ص ٢١.
ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٨٣

شاطىء الخليج بعد أن أسلم وحج[1]. كذلك بنى سلفه عبد الوهاب بن عبد الله بن أبى شكر المتوفى سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م مدرسة أخرى فى منطقة بين السورين عرفت باسمه ووقف عليها عدة أوقاف[2].

أما يحيى بن عبد الرازق الذى تولى الاستادارية للظاهر جقمق فقد بنى أكثر من مدرسة. بنى المدرسة الأولى مجاورة لبيته بالقرب من المدرسة الفخرية بين السورين، وبالغ فى تأنقها ووقف عليها مكتبة كبيرة ورتب بها تصوفا وخطبة. وممن تولى التدريس بها ابن حجر العسقلانى. كما أنشأ مدرسة ثانية ببولاق رتب فيها الدروس والصوفية، ثم أنشأ مدرسة ثالثة بالحبانية[3]. وأنشأ الأمير فخر الدين بن أبى الفرج الأرمنى[4] مدرسة بين السورين لتدريس فقه المذاهب الأربعة وقرر فيها الصوفية والطلبة وافتتحت للدراسة فى رمضان سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م ولم يستطع الأمير فخر الدين حضور الافتتاح نظرا لشدة مرضه[5].

ولم يقتصر إنشاء المدارس على القاهرة وحدها بل انتشرت فى معظم البلاد من أسوان فى أقصى الجنوب إلى الإسكندرية ودمياط فى أقصى الشمال. ولم يكن البعد النسبى للوجه القبلى عن العاصمة مانعا أو عازلا عن المشاركة فى النهضة التعليمية التى عاشتها مصر فى تلك الفترة بل على العكس من ذلك كان دافعا ومشجعا لإنشاء الكثير من المدارس حتى إن أسوان وحدها حظيت بثلاث مدارس[6]. وليس المقصود هنا عمل إحصاء لمدارس الوجه القبلى. وقد لوحظ أن الإدفوى لم يحاول ذكر أسماء مدارس أسيوط وإنما اقتصر بقوله أن فلانا تولى التدريس أو تولى الإعادة بمدرسة أسيوط[7]. ومع ذلك فقد وجد بأسيوط مالا يقل عن أربع مدارس هى الشريفية والفائزية والبدرية والخضيرية[8].

---

(١) انظر: ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ١٢٦. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٤١، ١٤٢

(٢) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٥ ص ١٠٢، ١٠٣. أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ ٤ ص ٢١.

(٣) انظر السخاوى: الضوء اللامع جـ١٠ ص ٢٣٣، ٢٣٤. ابن الصيرفى: إنباء العصر ص ١٧٥.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٤٣٢ -- توفى الأمير فخر الدين فى شهر شوال سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨م تولى منصب الاستادارية والوزارة.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٢٤٩.

(٦) الإدفوى: الطالع السعيد ص ١٩: المدرسة البانياسية - المدرسة النجمية المدرسة السيفية: أنظر ص ١١٥ - ١٠٨ - ٢٥٠ - ٢٥٤ -- ٣٣٨ ٣٥٣ - ٤١٩ - ٤٢٠.

(٧) انظر الإدفوى: الطالع السعيد ص ١٠٦، ٢٨٧، ٤٠٨ - ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٢٢.

(٨) انظر: السخاوى الضوء اللامع جـ ٧ ص ١٧٨، جـ ١١ ص ١٥٦. اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٢٧، ٣٢٨.

أما مدينة إسنا فقد ذكر الإدفوى. فى مقدمة كتابه الطالع السعيد أن بها مدرستين[1] فقط إلا أنه فى صفحات أخرى من نفس الكتاب يذكر أسماء خمس مدارس وقد ذكرت بعض هذه المدارس فى مؤلفات أخرى ويمكن اعتمادا على هذه المصادر أن نحدد المدارس الخمس بالمدرسة الأفرمية[2]. والمدرسة العزية[3]، ومدرسة ابن السديد[4] والمدرسة الغربية[5]، والمدرسة المجيدية[6]. وليس هذا بالأمر الغريب إذ إن ابن بطوطة وصف مدينة إسنا بأنها «مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع»[7]. كذلك أهمل الإدفوى ذكر مدارس منية ابن الخصيب التى قال عنها ابن بطوطة «وحق لها على بلاد الصعيد التفضيل، بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد»[8]. كما ذكر ابن دقماق أن بها مدارس للشافعية والمالكية[9]. كما وجدت بأطفيح مدرسة أو أكثر[10]. وقد انتشرت المدارس فى معظم بلاد الصعيد :خميم[11] والبهنسا[12] وأمنت[13] وإدفو وقنا والأقصر وقمولا وهو[14]. يذكر ابن بطوطة أنه نزل بهو بمدرسة تقى الدين بن السراج ورآهم «يقرءون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ثم يقرءون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى»[15]. كما كان بالفيوم أيضا عدة مدارس، وقد بدأ إنشاء

---

(١) الإدفوى: الطالع السعيد ص ١٩.

(٢) الإدفوى: الطالع السعيد ص ١٩٣.

(٣) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٨٣، ١٣٦، ١٩٢، ٢١٥، ٢١٦ – ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٠.

(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٣٢، ٢٣٣ الإدفوى: الطالع السعيد ص ٢٩٥ – ابن أيبك الصفدى– الوافى بالوفيات جـ ٧ ص ٢٤٤.

(٥) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٦٥.

(٦) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٢٣٧ – ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٠.

(٧) ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٤٢.

(٨) ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٣٧.

(٩) ابن دقماق: الانتصار جـ ٥ ص ٢٢.

(١٠) يذكر السخاوى أن محمد بن أحمد.. تولى تدريس الحسامية ونظرها بأطفيح، بينما نجد ابن حجر يذكر أن أحمد عبد الوارث البكرى قد تولى تدريس أطفيح.
انظر: السخاوى: الضوء اللامع جـ ٧ ص ٨٩، ٩٠ ابن حجر إنباء الغمر جـ ١ ص ٨٧، ٨٨.

(١١) انظر: ابن بطوطة تحفة النظار ص ٤٠ – ابن دقماق: الانتصار جـ ٥ ص ٢٥.

(١٢) انظر: الأدفوى: الطالع السعيد ص ٢٩٩، ٣٠١ – ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ٤ ص ٣٠.

(١٣) انظر: الأدفوى: الطالع السعيد ص ٢٨٣، ٢٨٦ ابن حجر: الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٤٢٩ – ابن أبيك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ٣ ص ٢٠ ، ٢١.

(١٤) قمولا: بليدة بأعلى الصعيد من غربى النيل بمركز قوص.
انظر: محمد رمزى: القاموس الجغرافى، جـ ٤ ق ٢ ص ١٨٣.

(١٥) ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٤٠.

المدارس بها فى عصر مبكر عن باقى مدارس الأقاليم فى الفترة الأولى من حكم صلاح الدين[1]. ويذكر النابلسى أنه كان بها مدرستان للشافعية هما المدرسة التقوية التى أنشأها تقى الدين عمر ابن شاهنشاه والمدرسة الحسامية. ويضيف المقريزى أنه كان بها مدرسة أخرى للمالكية من إنشاء تقى الدين عمر[2]. وكما وجدت مراكز التعليم بالقاهرة بحكم أنها العاصمة ومقر السلطنة، والإسكندرية بسبب موقعها الجغرافى وتراثها الحضارى وأهميتها التجارية فإن قوص فى الجنوب كان لها نفس الدور وأصبحت رائدة للحركة التعليمية فى الجنوب. يتضح ذلك من الأعداد الكبيرة من المدارس التى وجدت بها، كما حظيت دراسة الحديث باهتمام خاص إذ كان بها داران لتدريس الحديث. وأنجبت قوص الكثير من العلماء لاسيما عائلة القشيرى وغيرهم ممن ترجم لهم الأدفوى وغيره من المؤرخين. ويرجع ذلك إلى موقعها على طريق الحج والتجارة من والى موانى البحر الأحمر، كما كانت مقر حكام الوجه القبلى. يذكر ابن بطوطة أن قوص «مدينة عظيمة لها خيرات عميمة» بساتينها مورقة وأسواقها مونقة ولها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة وهى منزل ولاه الصعيد»[3]. وقد ذكر الأدفوى أن بقوص ستة عشر مكانا للتدريس[4] ومع ذلك وجدت بعض المدارس الأخرى كالمدرسة الخاتونية[5]، ومدرسة فتح الدين أحمد بن سلطان القوصى[6]. وبذلك يكون بقوص على الأقل ثمانى عشرة مدرسة. على أن أهم ما يميز مدارس الصعيد بوجه عام أن معظمها كان من إنشاء الأهالى لاسيما العلماء منهم وقليل منها أنشأها الأمراء[7]. وقد سارت النظم بتلك المدارس على شكل النظم المعهودة بمدارس القاهرة من وجود «الداخلية بالمدارس»[8] للطلبة والمدرسين ويقوم بالتدريس الأساتذة يساعدهم المعيدون فى بعض المدارس. ويقوم بعض الموظفين بأعمال الإدارة التى أهمها النظر بالإضافة إلى بعض وظائف الخدمات. وكان الصرف على هذه المدارس من ريع الأوقاف التى يرتبها منشئو المدارس للصرف منها على طلبتها وموظفيها ولكن ليس هناك ما يؤكد أنه كانت تصرف للطلبة المرتبات أو الوجبات الغذائية. ولكن يذكر أن أحد المدرسين بقوص كان «إذا استفتح الدرس بعد البطالة

(١) انظر ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٥١ - الإدفوى: الطالع السعيد ص ٣٥٨.
السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٦٦.

(٢) انظر النابلسى: تاريخ الفيوم ص ١٩، ٦٠، ١٧٧ المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٤.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٤١.

(٤) الإدفوى: الطالع السعيد ص ١٩.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٩٩، ١٠٠.

(٦) المقريزى: السلوك جـ ٢ ق ١ ص ١٢، ١٣

(٧) أنشأ الأمير سابق والى قوص المدرسة السابقية: انظر الإدفوى. الطالع السعيد ص ٦٩، ٧٣.

(٨) انظر الإدفوى: الطالع السعيد ص ٥٠، ص ١٤٨.

يعمل طعاما حسنا وشيئا حلوا للطلبة وإذا ختمه للبطالة صنع مثل ذلك»[1]. وغالبا ما كانت هذه المدارس صغيرة الحجم، وعدد الموظفين بها قليل يتضح ذلك من أن معيد المشهد الجيوشى بقوص كان يقوم بأعمال الخدمة وعلاج الطلبة إذ يذكر فى ترجمة مبارك بن نصير المعيد بالمشهد الجيوشى أنه لما حضر أحد القضاة إلى قوص وسأله «من هو القيم؟ قال المملوك، ثم قال فمن المؤذن؟ فقال المملوك. ثم قال ومن الإمام؟ فقال المملوك ثم قال ومن المعيد؟ فقال المملوك»[2] كما كان الشيخ مجد الدين المدرس بالمدرسة النجيبية بقوص يقوم بوظيفة المؤذن[3].

ولا توجد معلومات كافية عن حياة الطلبة وشروط نزولهم بالمدارس. وربما كان ذلك ساريا وفقا لما هو معهود بمدارس القاهرة.

أما ما كان يدرس بهذه المدارس من العلوم فكانت العلوم التقليدية من فقه وحديث ولغة وغير ذلك، أما ما يلفت النظر أنه بإحدى مدارس إسنا كان علم الجبر من المواد التى يقوم المدرس بتدريسها داخل المدرسة. يذكر عن هبة الله المدرس بالمدرسة العزية بإسنا أن الطلبة كانوا يقرءون عليه العربية والأصول والجبر والمقابلة[4].

وكالعادة كانت هذه المدارس تزود بالمكتبات سواء من الواقفين أو من يتبرع بكتبه لها من المدرسين والمعيدين أو غيرهم من الناس.

ومن ذلك يتبين أن حركة إنشاء المدارس لم تكن حركة محلية خاصة بالقاهرة التى استأثرت بالكثير من المدارس التى شيدها السلاطين والأمراء وغيرهم من العلماء والتجار بدافع أو بآخر، ولكنها وجدت بالصعيد وأنشئت بجهود أهاليها الذاتية رغبة فى العلم والتعليم. كما أن فقهاء تلك المدارس لم يكن إغراء المال وسهولة الحياة داخل المدرسة هو الدافع لالتحاقهم بها، بل كان العلم لذاته.

مدارس الإسكندرية والوجه البحرى :

كانت الإسكندرية أسبق المدن المصرية معرفة للمدرسة إذ نشأت بها فى أواخر العصر الفاطمى كما سبق أن أشرنا ثلاث مدارس هى: مدرسة ابن عوف ومدرسة الحافظ السلفى

---

(١) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٤٠٨.
(٢) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٢٦١.
(٣) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٢٤٢.
(٤) الإدفوى: الطالع السعيد ص ٤٠١.

ومدرسة الطرطوشى. وذلك بحكم موقعها الجغرافى، وطبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية بها. وفى عهد صلاح الدين حظيت بالكثير من اهتمامه، وزار علماءها عدة مرات وسمع منهم وأنشأ بها مدرسة للمغاربة ووفر لهم الرعاية الصحية، بجانب ما توفر لهم من المساكن والأغذية والحمامات وغير ذلك. ويصف سبط ابن الجوزى الحياة العلمية بالإسكندرية فى آخر العصر الأيوبى فيقول «فقدمت الإسكندرية فى هذه السنة وهى سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م) فوجدتها ذات قرار ومعين معمورة بالعلماء مغمورة بالأولياء الذين هم فى الدنيا شامة كالشيخ محمد الساوى والشاطبى وابن شامة..»[١].

وفى العصر المملوكى أنشئت بها داران للحديث هما دار الحديث النبيهية[٢] ودار الحديث التكريتية التى أنشأها عبد اللطيف بن رشيد التكريتى فى سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) ووقفها «لتلاوة الكتاب العزيز وقراءة الأحاديث النبوية وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبى عبد الله بن إدريس الشافعى»[٣]. ويفهم من هذا النص أن الدراسة بهذه المدرسة لم تكن مقصورة على دراسة الحديث بل كان يدرس بها بعض العلوم الأخرى كالفقه وعلوم القرآن كالتفسير والقراءات وغير ذلك.

كذلك أنشئت بالإسكندرية بعض المدارس الأخرى كالمدرسة التى بناها أبو الحسن على اللخمى أحد تلامذة الحافظ السلفى[٤] والمدرسة التى أقامها الشيخ خضر وسماها المدرسة الخضراء بعد أن كانت كنيسة للروم[٥]. والمدرسة التى بالمرجانيين أنشأها عتيق بن محمد بن سليمان المخزومى. ووقفت عليها عدة أوقاف. ومدرسة الوشاقى وممن درس بها محمد بن عمر الخصوصى[٦] ومدرسة الجرارة وممن تولى التدريس بها عمر بن الحراشى البرلسى[٧]. كما أنشأ بها السلطان قايتباى مدرسة[٨].

---

(١) سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٧٤١، ٧٤٢.

(٢) السيد عبد العزيز: تاريخ الإسكندرية ص ٣٢.

(٣) السيد عبد العزيز: تاريخ الإسكندرية ص ٣٢: هذا النص نقله المؤلف عن اللوحة التأسيسية للمدرسة.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٥٢، ٤٥٤.

(٥) انظر: ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٢٢. اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ ٣ ص ٥ ، ٦ ، ص٢٦٤، ٢٦٨. أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ ٣ ص ١١٥، ١١٦.

(٦) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٨ ص ٢٥٦.

(٧) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٦ ص ١٠٧، ١٠٨.

(٨) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٠٠، ٣٠١.

وبطبيعة الحال ليست هذه كل مدارس الإسكندرية، إذ أن هذا العدد لا يتناسب مطلقا مع حجم المدينة والنشاط العلمى الذى كانت سباقة إليه.

أما مدينة دمياط، فقد شهدت حركة مماثلة فى العصر المملوكى، وأنشئت بها عدة مدارس منها المدرسة المسلمية[1]، والمدرسة الناصرية، والمدرسة المعينية وكانت مدرسة هائلة، أنشأها محمد بن معين الدين الفارسكورى ورتب بها شيخا وصوفية[2]. كما أنشأ السلطان الأشرف قايتباى المدرسة المتبولية بناها للشيخ المتبولى[3].

كذلك كانت الحلقات الدراسية تقام فى بعض المساجد بدمياط، وكان جامع الزكى أحد تلك الأماكن وممن درس به محمد بن عبد الوهاب البارنبارى[4]، ومحمد الشمس أبو عبد الله الجالودى الشافعى، وكان بارعا فى العلوم لاسيما أصول الدين والفقه. حسن الأخلاق ذا لطف بالطلبة[5].

هذا عن مدارس الثغرين الإسكندرية ودمياط. أما عن مدارس الوجه البحرى فيبدو أنها كانت قليلة. وربما كان ذلك ناتجا عن إقامة معظم الأمراء بالعاصمة وتفضيلهم بناء مدارسهم بها، كذلك لم يكن الوضع يحتم بناء المدارس بهذه الأقاليم نظرا لقربها من القاهرة أو الإسكندرية ودمياط، وهجرة معظم العلماء من الريف إلى المدن. ويبدو أن الطلبة أيضا كانوا يفضلون تلقى العلم فى إحدى المدارس الشهيرة والأخذ عن كبار العلماء الموجودين بها بدلا من الإقامة بالقرى وصغار المدن إذ غالبا ما تكون الدراسة بها محدودة.

ولهذه الأسباب لم نجد إلا القليل من المدارس مثل مدرسة البدر بن شعبة بفارسكور بناها قرب بيته وقرر الشهاب البيجورى مدرسا لها. ويبدو أنه لم يكن متفرغا لها. إذ يذكر أنه كان يتردد أياما من الأسبوع للتدريس بها[6] كما ابتنى عبد الله بن محمد بن عمر الطوخى المتوفى سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م مدرسة له بطوخ[7] وأنشأ الشيخ شمس الدين محمد الفيشى مدرسة ببلدة

---

(١) انظر: السخاوى: الضوء اللامع جـ ٣ ص ٢٦٣، جـ ٧ ص ٢٥٨.

(٢) السخاوى: الضوء اللامع جـ ١٠ ص ١٤، جـ ٨ ص ١٩٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٠٠، ٣٠١. الشيال: مجمل تاريخ دمياط ص ٥٤.
انظر: محمد أمين تاريخ الأوقاف: الحجة رقم ٨٨٩ صفحة ٥١٧ وما بعدها

(٤) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٨ ص ١٣٨.

(٥) السخاوى: الضوء اللامع جـ ١٠ ص ١١٠.

(٦) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٢ ص ٦٥، ٦٦ -- ولد البيجورى فى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م.

(٧) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٥ ص ٦٠.

فيشا وخصص السلطان حسن بن قلاوون لها نصيبا من بعض الأوقاف للصرف عليها[1]. كذلك يذكر ابن دقماق أن بلبيس كان بها جامع ومدارس[2].

أما المحلة فيبدو أن الدراسة بها كانت تقام بالجوامع، يذكر أن محمد بن عبد الله الشمس أبو عبد الله الدميرى المتوفى سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م بنى بالمنشية المجاورة للمحلة جامعا وقام به يدرس ويفتى[3]. أما محمد بن مراوح المتوفى فى سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م فكان يتصدى للإقراء بجامع المحلة[4]. أيضا يذكر أن الحسين بن عبد الرحمن بن عمر الأرمنتى أقام بالمحلة عدة سنين يدرس ويقضى بها نيابة عن قاضيها ويشغل الطلبة[5]. ومع ذلك لم يرد ذكر للمدارس بها إلا ما ذكره ابن دقماق «وبهذه المدينة جوامع ومدارس»[6].

عمارة المدرسة :

أخذت المدرسة فى التطور حتى اكتمل تصميمها المعمارى المتعارف عليه وهو عبارة عن صحن مكشوف أو مغطى وحوله إيوانان أو أربعة أواوين متعامدة ذات شكل صليبى أكبرها إيوان القبلة، وتقارب التصميم المعمارى لكل من المدرسة والمسجد حتى أصبح من الصعب تمييز بناء المدرسة عن بناء المسجد. ولكن ما يميز المدرسة أنه قد روعى فى تصميمها الأغراض التعليمية وإنشاء مساكن للطلبة والمدرسين وغيرهم من أصحاب الوظائف، وبعض الملحقات من القاعات والحواصل، وغالبا ما يكون بجوار المدرسة سبيل للماء ويعلوه مكتب لتعليم الأيتام بالإضافة إلى وجود مدفن للمنشىء وأسرته[7]. إذ تذكر حجة السلطان حسن بن قلاوون «.. خلا الفسقيتين المبنيتين فى تخوم الأرض والأرض الحاملة لهما فإنه – تقبل الله أعماله– وقفهما لدفن نفسه الشريفة– رزقه الله أطول الأعمار– ودفن أولاده وذريته ونسله وعقبه على ما يعينه– خلد الله مملكته– ويقتضيه رأيه الشريف..»[8] وما جاء بحجة السلطان المؤيد شيخ

(١) انظر حجة وقف السلطان الناصر حسن بن قلاوون رقم ٣٧محفظة ٦ دار الوثائق (٧٥٩هـ).

(٢) ابن دقماق: الانتصار جـ ٥ ص ٥١.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٨ ص ٢٤٨.

(٤) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٩ ص ٦١.

(٥) الإدفوى: الطالع السعيد ص ١١٦.

(٦) ابن دقماق: الانتصار جـ ٥ ص ٨٢.

(٧) انظر: عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية: المجلد الأول ص ١٤٩ زكى محمد حسن: فنون الإسلام ص ٧١، ٧٣. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام جـ ٤ ص ٦٠٦، ٦٠٧. حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد ص ١٤. لينبول: سيرة القاهرة ص ٢٠٨ – محمد أمين: تاريخ الأوقاف ص ٣٠٣.

(٨) حجة السلطان حسن بن قلاوون ٨٨١ أوقاف ص ٤٣٤، ٤٣٥.

«وأما القبتان وما بهما من الفسقيتين فإنه وقف ذلك وجعل الفسقيتين معدتين لدفنه ودفن من يموت من ذريته..»[1] وهذا ما لم يعهد قبل ذلك فى المساجد.

وقد اختلفت الآراء وتباينت حول الأصول المعمارية للشكل الصليبى الذى اتخذته المدارس فى عصرى الأيوبيين والمماليك، وظهرت على الأقل ثلاث نظريات تنسب الشكل الذى اتخذته المدرسة إلى نظام معمارى معين، ومن الإمكان إيجاز هذه النظريات على الأقل لتوضيح أوجه الخلاف بين النظريات الثلاث:

١ - **نظرية الأواوين المتعامدة ذات الشكل الصليبى.** ويرى أصحابها أن المدرسة اشتقت هذا النظام المعمارى من الكنائس البيزنطية ذات الشكل الصليبى فى سوريا، وأن المدارس اتخذت هذا الشكل لأنه يوافق الغرض الرئيسى من المدرسة وهو تدريس المذاهب الأربعة. ثم أخذت المدرسة تفقد من صفتها التعليمية فأصبحت مسجدا جامعا يترك نظامه العتيق ويتبع النظام الصليبى[2]. ولكن المعترضين على هذه النظرية يقولون بأنه ليس هناك ما يبرر اشتقاق النظم المعمارية للمدارس من الكنائس البيزنطية أو السورية، إذ إن العوامل المعمارية مختلفة فى كل من النظامين، لأن تخطيط المدارس مستمد من ضرورة وجود بهو مكشوف يتوسطها. أما تخطيط الكنائس فقد فرضته مقتضيات معمارية إذ إنه حل علمى لبناء قبة تتوسط البناء وتتطلب سندا من كل جانب ليتحمل قوة الضغط المندفع من القبة، أى إن ابتكار هذا الشكل فى بناء الكنائس كان استجابة لضرورة معمارية وهذه الضرورة غير موجودة فى المدارس[3]. كذلك يرى كريسويل أن الشكل الصليبى لم يكن مستخدما فى العمارة فى سوريا ولذلك تنتفى نظرية اشتقاق المدارس المصرية لنظامها المعمارى عن النظام السورى[4]. كذلك يرى البعض أن نظام المدرسة كان تطورا لنظام المسجد وليس العكس كما يدعى أصحاب النظرية البيزنطية[5].

---

(١) حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف.

انظر: حجة السيفى قلمطاى ٦٨ محفظة ١١ دار الوثائق.

(٢) انظر: أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ١٢٦، ١٢٧.

Creswell. Muslim Architecture of Egypt. Vol. 2 p. 104.

(٣) أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ١٢٧، ١٢٨.

(٤) انظر: أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ١٣١.

CRESWELL. Muslim Architecture of Egypt. Vol. 2 pp. 106-107-120-121.

(٥) أحمد فكرى: مساجد القاهرة جـ ٢ ص ١٣١.

٢ - **النظرية الفارسية.** ويرى أصحابها أن الشكل الصليبى للمدرسة ذات الأواوين الأربعة مستمد من النظام الفارسى، لأن نظام المساكن فى مصر كان مقتبسا من أنظمة القصور الساسانية، وأن نظام المدارس فى مصر اقتبس بالتالى من نظام المساكن المصرية التى تطورت القاعة فيه وأصبحت إيوانا للمدرسة ملائما لبيت الصلاة وصالحا للتدريس والصلاة معا، وربما كان هذا التصور أيضا نتيجة لنشأة المدرسة أولا فى إيران والعراق، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الشام ومصر وأكد أصحاب هذه النظرية عدم ارتباط تدريس المذاهب بعدد الأواوين[١].

٣ - **نظرية القاعة المصرية:** وتعتمد هذه النظرية على أن نظام المدرسة فى مصر مأخوذ من نظام المساكن المصرية (القاعة والدر قاعة)، التى تتكون من صحن يحيط به إيوانان وذلك اعتمادا على اكتشاف قاعة الدردير التى اكتشفت فى عام ١٩٢٢م «وهذا النمط يوافق نمط المدرسة ذات الأواوين تماما. وبالرجوع إلى النصوص سنجد فى الواقع أن كثيرا من المدارس المبكرة كانت منازل تحولت إلى مدارس بعد وفاة أصحابها، وهذه النظرية واجهت اعتراضا من جانب هوتكور فى عام ١٩٣٢[٢] وقد أعطى كريسويل بعض الأمثلة الشاهدة على تأكيد نظريته. فالمدرسة القمحية كانت بالفعل دارا، وكذلك المدرسية السيوفية كانت دارا لمأمون البطائحى، ومدرسة منازل العز كانت قصرا بنته والدة الخليفة العزيز بالله الفاطمى، والمدرسة الشريفية كانت منزلا لأبى نصر إسماعيل، والمدرسة المسرورية كانت دار شمس الخواص مسرور، والمدرسة القيسرانية وكذلك المدرسة الغنامية ومدرسة خشقدم الأحمدى[٣].

كذلك يرى كريسويل أن عدد الأواوين مرتبط بعدد المذاهب التى تدرس فى المدرسة وأن لكل مذهب إيوانا معينا. واستخرج سبعة أمثلة للدلالة على صحة رأيه وأنه فى ذلك ما يكفى لتحطيم نظرية معارضيه[٤].

وقد قام الدكتور أحمد فكرى بدراسة لمناقشة نظريات المستشرقين. ثم خرج بنتيجة جديدة تغاير هذه النظريات. إذ يرى أن المدرسة منشأة دينية لها شروط خاصة، وأن تعريفها مستمد

---

(١) CRESWELL. Muslim Architecture of Egypt. Vol. 2 pp. 120-121.

(٢) أحمد فكرى مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ١٣٧ ، ١٣٩.

CRESWELL. Muslim Architecture of Egypt. Vol. I 161, 163.

(٣) CRESWELL. Muslim Architecture of Egypt. Vol. 2 129, 130.

(٤) CRESWELL. Muslim Architecture of Egypt. Vol. 2 L20-12L.

من البيوت المخصصة فيها لسكنى الطلبة والمدرسين لا من قاعات التدريس والمدرسين التى بنى عليها العلماء نظرياتهم الصليبية، واعتبروا الأواوين مواضع للتدريس وجعلوا منها العناصر الرئيسية فى تخطيط المدارس. ثم اعترض على نظرية كريسويل بأن الشك يحوم حول تاريخ إنشاء قاعة الدردير ويرى أنه لو فرض وأنها ترجع إلى القرن السادس الهجرى فإن قاعة الدردير تظل تاريخيا لاحقة لعهد إنشاء المدارس. ويرى الدكتور أحمد فكرى أيضا أن القاعة ذات صحن مسقوف بخلاف صحن المدرسة الفسيح المكشوف أما أن الثلاثة عشر دارا التى حولت إلى مدارس فلا ينهض ذلك دليلا على أن المدارس اشتقت أنظمتها من المساكن بالإضافة إلى أن هذه المدارس كانت صغيرة الحجم ومن النوع الثانوى. أما الإيوان. وهو البيت المؤزج أى المرتفع بناؤه، غير المسدود الوجه، فلم يرد فى كتب المؤرخين إلا ابتداء من القرن الثامن الهجرى[1]. لذلك يرى أن العناصر المعمارية الرئيسية للمدارس قد استمدت تخطيطها من تخطيط المسجد الجامع إذ إن جدار القبلة هو قاعدة التخطيط بالمدارس أى بمثابة المحور، وأن بيت الصلاة يمتد فى موازارة هذا الجدار ويتوسط المدرسة بهو مكشوف. أما التطور الذى حدث فى عمارة المدرسة واختلف عن عمارة الجامع فحدث فى المجنبات ومؤخر البهو إذ فقدت أهميتها بالنسبة للمدارس وانكمشت هذه المجنبات والمؤخر واستبدلت بها بيوت لسكان المدرسة وقاعات وأواوين[2]. وعلى ذلك يقوم بتعريف المدرسة فى الإسلام بأنها هى المسجد الجامع الذى أقيمت فى حرمه بيوت لسكنى فريق مختار من الفقهاء أو الطلاب ورتب لتدريسهم فيه مدرسون بأجر معلوم ووفرت للجميع فيه سبل البحث والدراسة والمعيشة وأجريت عليهم الجرايات الوافرة[3].

وظائف المدرسة :

أعدت المدرسة أساسا لتكون مكانا للتدريس ومبيت الطلبة والمدرسين بالإضافة إلى باقى الموظفين الذين يقومون بخدمتهم. كذلك قامت المدرسة بدور المسجد بحيث يتمكن الطلبة وأصحاب الوظائف ومن يحضر إليهم من المسلمين أن يقيموا بها شعائر الصلاة ما عدا صلاة الجمعة. يؤيد ذلك ما جاء بحجة وقف السلطان قلاوون «وأما المدرسة المباركة المذكورة أعلاه فإنه وقفها على الفقهاء والمتفقهه على مذاهب الأئمة الأربعة رضى الله تعالى عنهم وعلى المدرسين والمعيدين بالمدرسة المذكورة يقيمون بها ويسكنون فى بيوتها وعلى المترددين للمدرسة المذكورة للصلوات..»[4]. وما يذكره النويرى من واقع حجة وقف السلطان محمد بن قلاوون أنه وقف

---

(١) أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ١٦٣؛ ١٧٣ - ١٧٥، ١٨٣.

(٢) أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ١٨٥.

(٣) أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها جـ ٢ ص ١٩٢.

(٤) حجة السلطان قلاوون: ١٠١٢ أوقاف.

المدرسة «على الطلبة والمدرسين وغيرهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة» وعلى المترددين بهذه المدرسة والمجتازين للصلوات وأداء الفرائض. وخلى بين المسلمين وبينها تخليه شرعية وأذن لهم فى الصلاة فيها وصار حكمها حكم سائر المدارس»[1] وظل ما يميز المساجد الجامعة عن المدرسة هو إقامة شعائر صلاة الجمعة بالجامع بالإضافة إلى وجود منبر الخطابة به، ولكنا نجد أن هذا الفارق بدأ فى الاختفاء اعتبارا من سنة ٧٣٠هـ (١٣٢٩م). وقد ظلت القاهرة تقام بها خطبة واحدة للجمعة فى جامع الحاكم حتى سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) إذ عادت الخطبة إلى الجامع الأزهر فى عهد السلطان الظاهر بيبرس، وقد صاحب ذلك معركة فقهية بين مؤيدى التصريح والمنع[2]. وعلى أية حال فقد أصبح للقاهرة خطبتان للجمعة اعتبارا من هذا التاريخ، ثم دخلت المدارس هذا المضمار، ففى سنة ٧٣٠هـ (١٣٢٩م) تم تركيب منبر بالمدرسة الصالحية بين القصرين وعين لها خطيب لإقامة صلاة الجمعة بها[3]. وبعد ذلك أقيمت صلاة الجمعة فى كثير من المدارس، فقد أقيمت الخطبة فى المدرسة الصاحبية فى سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٦م كذلك أقيمت فى عدد آخر من المدارس[4]. وهكذا أصبحت الكثير من المدارس تقوم بأداء رسالة المساجد الجامعة إذ تذكر حجة السلطان حسن بن قلاوون «.. وأما المكان الكبير المجاور للقبة المذكورة من الجهة البحرية المشتمل على الأواوين الأربعة والصحن والبحرة[5] التى بوسطه فإنه أعز الله أنصاره وقف ذلك جميعه خلا البحرة مسجدا لله تعالى تقام فيه الصلوات والجمع والأعياد والجماعات ويعتكف فيه على الطاعات ويتلى فيه كتاب الله الكريم ويذكر فيه اسمه العظيم ويشتغل فيه بالعلم الشريف وجعل حكمه حكم المساجد العامة..»[6]. إلا أن إقامة صلاة الجمعة بالمدارس لم يكن مباحا بشكل مطلق، بل خضع لبعض القيود ففى سنة ٧٧٤هـ (١٣٧٢م) أراد الأمير الجاى أن يجدد منبرا بالمدرسة المنصورية وأن يقرر بها خطيبا لتقام بها صلاة الجمعة فأفتاه بعض العلماء بجواز ذلك وأنكره البعض الآخر نظرا لقرب المدرسة المنصورية

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ سنة ٧٠٣هـ

(٢) انظر: ابن خلدون: العبر جـ ٥ ص ٣٨٧. المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٥٦، ٥٥٧.

اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٦٠، ٣٦١.

Encyclopaedia of Islam Vol. 3, part. 1. P. 358.

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٣١٧ – الخطط جـ ٢ ص ٣٧٣.

(٤) انظر: المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٧٠، ص ٣٨١، ٣٩٨ – السخاوى: التبر المسبوك ص ٧٦ – ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٣ ص ٢٧٢.

Encyclopaedia of Islam Vol. 3. Part. 1. P. 358.

(٥) البحرة بمعنى فسقية إذ يذكر فى نفس الحجة ص ٤٣٦، ٤٣٧ وجعل البحرة المذكورة لإجراء الماء إليها لينتفع بها فى الوضوء وغيره..

(٦) حجة السلطان حسن بن قلاوون ٨٨١ أوقاف ص ٤٣٥.

من الصالحية التى تقام بها خطبة للجمعة وانتهى النزاع بين العلماء إلى منع إقامة الخطبة بها[1].

وحدث تطور آخر وهو التقارب بين المدرسة والخانقاة إلى أن ظهرت أخيرا المدرسة الخانقاة التى تجمع بين الطلبة والصوفية. ثم انتهى الأمر فى عصر المماليك الجراكسة لأن يصبح الصوفية هم أنفسهم طلبة العلم.

وسبقت الخانقاة المدرسة فى تطورها لتأخذ الشكل التعليمى بالإضافة إلى وظيفة التصوف مثلما كان بخانقاة مغلطاى الجمالى حيث رتب دروس العلم للصوفية[2].

أما مدرسة السلطان برقوق التى أطلق عليها المدرسة الخانقاة فى حجة وقفة فقد كانت تجمع فى نفس المبنى جماعة الصوفية الذين يقومون بوظيفة التصوف بالإضافة إلى أعمال الخدمة وغيرها من الوظائف بالمدرسة ولكنهم لم يكونوا من طلبة العلم. إذ تذكر الحجة «وشرط مولانا السلطان الواقف المذكور خلد الله ذكره أن يحضر شيخ الخانقاة المذكور الحنفى المذهب المقدم ذكره وطلبة المذاهب الأربعة المذكورون عالية وشيخ الحديث وطلبته وشيخ القراءات السبع وطلبته والصوفية المشار إليهم فيه وعدة جميع ذلك مائة نفس وسبعة وثمانون نفسا فى كل يوم ويصلون العصر بالمدرسة الخانقاة..»[3]. على أن نظام المدرسة الخانقاة بهذا الوضع الذى يحدد مهام الصوفية ومهام الطلبة كل فئة على انفراد قد سبقت إليه المدرسة المهمندارية[4] التى أنشئت فى سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٤م) وكذلك خانقاة شيخون إذ يذكر السخاوى أن السلطان برقوق عندما أنشأ مدرسته «سلك فى ترتيب من قرره فيها مسلك شيخون فى مدرسته»[5].

---

(١) انظر: ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٥، ٣٦. المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ١ ص ٢٠٦.

(٢) انظر: حجة مغلطاى الجمالى ١٦٦٦ أوقاف.

(٣) حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق. كما يذكر بعد ذلك فى الحجة ترتيب درس تفسير به مدرس وعشرين طالبا.

انظر: محمد أمين: تاريخ الأوقاف. ص ٢٦٠ إذ يرى أن طلبة العلم بمدرسة السلطان برقوق هم أنفسهم من الصوفية.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٨.

(٥) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٣ ص ١٢.

انظر ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٥٨.

إذ يذكر أن الأمير شيخون ابتنى مدرسة هائلة وجعل فيها المذاهب الأربعة ودارا للحديث وخانقاة للصوفية.

ولكن يمكن القول أن الصوفية هم أنفسهم الطلبة فى خانقاة الأمير جمال الدين الاستادار حيث إن معظم الطلبة المرتبين بالدروس كانوا من جملة الصوفية المنزلين بها[1].

على أية حال فقد تشابكت الأغراض وتكاملت وأصبحت المدرسة والخانقاة والمسجد أو المسجد الجامع مبنى واحدا يقوم بهذه الأغراض مجتمعة، ويتضح ذلك فى معظم المنشآت فى عصر المماليك الجراكسة، كما تبين فى المدرسة البرقوقية إذ إنها كانت مسجدا جامعا وخانقاة ومدرسة. ثم ما أنشئ بعد ذلك فى عصر المؤيد شيخ والأشرف برسباى وقايتباى حيث إنهم أنشئوا الجوامع لتقوم بذلك وأصبح الصوفية هم أنفسهم الطلبة[2]، والجامع يقوم بوظيفة المدرسة والخانقاة. ومن ذلك ما تذكره حجة المؤيد شيخ «وأما الأواوين المشار إليها أعلاه فإنه وقفها وجعلها معدة لإقامة الصلوات فيها ولجلوس المدرسين وطلبتهم والصوفية فيها على العادة فى مثل ذلك»[3].

تعددت الأغراض فى استخدام المدارس فى غير التعليم، فقد استخدمت مقرا للقضاة ونواب دار العدل للفصل فى القضايا. كان ذلك مع بداية الدولة المملوكية، إذ يذكر المقريزى أنه فى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م استناب المعز أيبك الأمير علاء الدين البندقارى «فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نواب دار العدل لترتيب الأمور وكشف المظالم»[4]. واستمر جلوس القضاة ونوابهم بالمدرسة الصالحية بين القصرين لعقد المحاكمات[5] بحضور الفقهاء والعلماء والمفتين وغيرهم، مع استخدام بعض المدارس الأخرى لعقد بعض مجالس الحكم فيها كالمدرسة الناصرية[6]، والمدرسة المنصورية[7] والمدرسة الصاحبية[8]، ودار الحديث الكاملية[9].

---

(١) انظر: حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ دار الوثائق.

(٢) انظر: حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف. حجة السلطان برسباى ٨٨٠ أوقاف. حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف.

(٣) حجة السلطان المريد شيخ ٩٣٨ أوقاف.

(٤) المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٧٣.

(٥) انظر: ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات م ٩ جـ ١ ص ١١٠، م ٩ جـ ٢ ص ٢٤٦، ٢٨٤، ص ٢٩٨، ٢٩٩ ـ المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ٢، ص ٦٣٦.

(٦) ابن الفرات م ٩ جـ ٢ ص ٣١١.

(٧) ابن الفرات جـ ٨ ص ٤٩، ٥٠ انظر: محمد رزق سليم. عصر سلاطين المماليك جـ ١ ق ٢ ص ٨٥.

(٨) ابن الفرات جـ ٨ ص ١٧٧.

(٩) ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٩ ص ٧٦، ٧٧.

إلا أنه يبدو أن المدرسة الصالحية كانت هي المقر الرئيسي للقضاء كما كانت تنفذ تحت شباكها أحكام الإعدام[1].

كذلك جرت العادة على قراءة تقليد تولى القضاء في إحدى المدارس لاسيما في المدرسة الناصرية إذ يذكر المقريزي أنه في سنة ٧٨٦هـ (١٣٨٤م) قرىء تقليد كل من قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أبي بكر الطرابلسي الحنفي وقاضي قضاة المالكية ولي الدين بن خلدون «في المدرسة الناصرية بين القصرين على العادة»[2]. كذلك استخدمت مدرسة الظاهر برقوق بين القصرين في نفس الغرض[3].

كما كان تقليد قضاة القضاة تتم مراسيمه النهائية في المدرسة الصالحية فإذا صدر مرسوم بتولي قضاة القضاة كان يقوم القاضي الصادر المرسوم باسمه بالخروج إلى المدرسة الصالحية في موكب ضخم يضم باقي القضاة والأمراء وغيرهم. من ذلك ما يذكره ابن الفرات «ونزل قاضي القضاة صدر الدين في موكب عظيم حفل من القلعة إلى القاهرة وركب معه من الأمراء المقر السيفي نوروز الحافظي رأس نوبة والمقر السيفي قلمطاي الدوادار والمقر السيفي فارس حاجب الحجاب والمقر السيفي قديد أمير حاجب والمقر السيفي أبو بكر سيدي أمير حاجب وبقية الحجاب وجماعة الأمراء وقضاة القضاة ونوابهم «ووصل إلى المدرسة الصالحية وجلس بإيوان الشافعية على جاري العادة وعاد إلى منزله وكان يوما مشهودا»[4].

أما المدرسة المنصورية فكانت بمثابة قاعة احتفالات فكانت مواكب الأمراء المقيمين بالقلعة تتجه في حالة إنعام السلطان على أحدهم بوظيفة أو لقب أو خلعه إلى هذه المدرسة لاستكمال مراسم الاحتفال[5]، كما كانت المواكب تخرج من هذه المدرسة متجهة إلى القلعة إذا كان هناك تكريم منتظر لأحد زوار مصر مثلما حدث عندما أنعم السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الملك عماد الدين صاحب حماة بالسلطنة، فتقدم إليه الأمراء ومعهم التشاريف «يقول صاحب الترجمة وحضر جميع ذلك إلى المدرسة المنصورية بين القصرين وقدم لي حصان كامل العدة فركبته بكرة الخميس سابع عشر المحرم الموافق للثامن والعشرين من شباط بالشعار المذكور

---

(١) انظر: ابن الفرات م ٩ جـ ٢ ص ٢٥٦. المقريزي: السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٤٩٣، ٧٤٢. ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٨٠.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٥١٦، ٥١٧.

(٣) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات م ٩ جـ ٢ ص ٣٧٨، ٣٤١.

(٤) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات م ٩ جـ ٢ ص ٤١٠ انظر ص ٣٣٠.

(٥) انظر المقريزي: السلوك جـ ٣ ق ١ ص ١١٧، ١١٨. ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر جـ ٩ ص ٣٥٧.

ومشت الأمراء إلى أثناء الطريق وركبوا..»[1] واستمر الركب إلى أن وصل إلى القلعة ليبدأ الاحتفال الرسمى.

كذلك استخدمت المدرسة الصالحية فى بعض الأحيان كسجن مؤقت لمن يقبض عليهم حتى يقدموا للمحاكمة إلى أن تقام عليهم البينة أو تثبت براءتهم[2].

كما استخدم الأمير جمال الدين الاستادار المدرسة الحجازية سجنا لمن يصادره يذكر أنه «صار يحبس فى المدرسة الحجازية من يصادره أو يعاقبه حتى امتلأت بالمسجونين والأعوان المرسمين عليهم فزالت تلك الأبهة وذهب ذلك الناموس واقتدى بجمال الدين من سكن بعده من الاستادارية فى داره وجعلوا هذه المدرسة سجنا»[3]. كذلك استخدمت المدرسة الشريفية لنفس الغرض[4].

وفى سنة ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) عندما هدد تيمورلنك الشام وعزم السلطان برقوق على قتاله جلس قضاة القضاة ومعهم محتسب القاهرة بالمدرسة الصالحية لجباية أموال الزكاة من التجار وأصحاب القياسر والأسواق للاستعانة بها فى تجهيز الجيوش[5].

كذلك استخدمت المدرسة القراسنقرية فى بعض الفترات استراحة لعمال البريد إلى أن يحين سفرهم يذكر المقريزى «وكنا نعهد البريدية إذا قدموا من الشام وغيرها لا ينزلون إلا فى هذه المدرسة حتى يتهيأ سفرهم وقد يطل ذلك من سنة تسعين وسبعمائة»[6] (١٣٨٨م).

وكان لموقع بعض المدارس فى مواجهة القلعة كمدرسة السلطان حسن بالرميلة ومدرسة الأشرف شعبان بالسوة أنها كانت تمكن من يستولى عليهما ويتحصن فيهما أو فى إحداها من تهديد القلعة. ولهذا نجد أن هاتين المدرستين لعبتا دورا خطيرا فى النزاع الذى دار كثيرا بين المماليك من أجل الاستيلاء على السلطة، فأثناء الفتنة التى أعقبها فرار الظاهر برقوق إلى الشام وأثناء الصراع الذى دار بين كل من منطاش ويلبغا الناصرى، ثم بعد ذلك بين برقوق ومنطاش،

---

(١) أبو الفدا: المختصر جـ ٤ ص ٨٧.

انظر ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر جـ ٩ ص ٣٥٧، ٣٦٤ – ٣٦٦.

(٢) انظر المقريزى: السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٤٨٤. ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٣ ص ١٩٠، ١٩٣، ١٩٦.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٨٢.

(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ ٥ ص ١٩.

(٥) انظر: ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات م ٩ جـ ٢ ص ١٣، ١٤، ١٥.

(٦) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٨٧.

لعبت هاتان المدرستان دورا بارزا، فقد استخدمها المتنافسون باعتبارهما قلعتين للتحصن فيهما وضرب القلعة من أعلى سطحيهما. وفى نهاية هذا الصراع لم تستطع مماليك الظاهر برقوق السيطرة على الموقف الذى أدى إلى إعادة برقوق إلى السلطنة للمرة الثانية، إلا بعد استيلائهم على كل من المدرسة الأشرفية ومدرسة السلطان حسن فتمكنوا من القضاء على الفتنة والقبض على مماليك منطاش واستتب الأمر بذلك للظاهر برقوق[1].

وقد أدرك السلطان برقوق أهمية مدرسة السلطان حسن فى مواجهة القلعة من خلال الدور الذى لعبته أثناء مراحل ذلك الصراع فأمر بهدم السلالم الموصلة إلى المنارتين والسطح[2]. فبطل الآذان من المنارتين. وعندما حدثت الفتنة من الأمير فارس حاجب الحجاب ضد السلطان فرج ابن برقوق وخرجت المماليك السلطانية لقتاله ثبت «لهم الأمير فارس وكاد يهزمهم لولا ما كادوه من أخذ مدرسة السلطان حسن ورميه من أعلاها إلى أن هزموه»[3].

بل كان مجرد السكن بجوار هذه المدرسة يسيىء الظن بصاحبه يذكر أن الأمير يشبك كانت داره مجاورة لمدرسة السلطان حسن فلما طلب منه الناصر فرج تركها، امتنع الأمير يشبك فساء الظن به ثم إن البعض «وشى به أنه يسور إليها ويرمى منها على القلعة»[4]. ونظرا لوقوع مدرسة الأشرف شعبان على باب القلعة فقد كانت لها أهميتها العسكرية مما جعل المتمردين يستعينون على حصار القلعة بالنزول فيها فكره السلطان فرج بن برقوق ذلك وأمر بهدمها فى سنة ٨١٤هـ (١٤١١م)[5].

أما مدرسة السلطان حسن فقد عاد السلطان برسباى إلى تعمير مدخلها وأمر بفتح «الباب الكبير وإعادة السلم والبسطة»[6] ولم يستمر ذلك طويلا إذ سرعان ما بدأت المناوشات

---

(١) انظر المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ١ ص ٣٨١، ٣٨٢ – الخطط جـ ٢ ص ٣١٥ – ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات م ٩ جـ ١ ص ١١٨ – ١٩٤.

(٢) انظر: المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٧٣٣ – الخطط جـ ٢ ص ٣١٥. ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص٤١٤، ٤١٥ – ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات م ٩ جـ ٢ ص ٢٤٦، ٢٤٧.

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: جـ ١٢ ص ١٨.

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ٩٨٦ – ٩٨٧.

(٤) المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٣٧.

(٥) انظر: ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٤٩٢، ٤٩٣. المقريزى: السلوك جـ ٤ ق ١ ص ١٨٣. القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٨. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١٢٣.

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٤١٥.

والخلافات بين المماليك، فثار مماليك الأشرف برسباى ضد السلطان جقمق، وتوجهوا إلى المدرسة فأحرقوا بابها وصعدوا منه إلى السطح لتهديد القلعة، وكان من نتيجة ذلك أن اجتمع القضاة «بجامع القلعة وحكم قاضى القضاة شمس الدين محمد البساطى المالكى بهدم سلالم مئذنتى السلطان حسن وهدم سلالم سطحها. وألزم الناظر فى مجلس الحكم بهدم ذلك فمضى وهدمه فكان هذا الحكم أيضا من الأحكام التى لم نعهد من القضاة مثله»[1].

ومن كثرة ما تعرضت له المدرسة من الضرب بالمكاحل ومدافع اللهب وخوفا أن تكون المنائر والقبة قد تأثرت من ذلك فقد أمر السلطان أبو النصر إينال المهندسين بالكشف على المدرسة وخاصة المئذنة القبلية عندما أشيع أنها آيلة للسقوط فوجدها المهندسون بحالة جيدة غير أن رصاص القبة به بعض الخروق وهلالها متعوج «فأخرج الهلال وبقيت القبة بدونه وذلك أسهل مما لو هدمت المئذنة»[2].

وفى سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٦م) كانت فتنة الأمراء بقيادة أقبردى فحاصر القلعة وضربها من أعلى مدرسة السلطان حسن فقام المماليك السلطانية بالرد عليهم ورموا «بالمكحلة[3] المسماة بالمجنونة على من فى مدرسة السلطان حسن فمزق المدفع شباك المدرسة.. فزحفوا زحفة واحدة على جماعة اقبردى فانكسروا وفروا فهجموا على من كان بمدرسة السلطان حسن وأحرقوا بابها ودخلوا على من بالمدرسة»[4].

ولما أعيت هذه المدرسة السلاطين نتيجة لاستمرار الفتن واستغلال المتمردين موقعها أمر السلطان الأشرف جان بلاط بهدمها. وفعلا بدأ الهدم فيها لمدة ثلاثة أيام. ولكن نظرا لضخامة البناء ومتانته فقد أعيى العمال ذلك. ولم يهدموا منها إلا جزءا بسيطا وتكلم «الأمير تغرى بردى الاستادار مع السلطان فى عدم ذلك فرجع السلطان وترك الهدم وقد تأسف الناس على هدمها»[5]. وسلمت هذه المدرسة من لقاء مصير المدرسة الأشرفية. وكان لقرار هدم هذه المدرسة رنة أسى فى نفوس الناس ورثاها بعض الشعراء ومع ذلك فإن ابن اياس يرى أن السلطان ما كان «يقدر على هدمها فكان ترك ذلك أوجب وقد ظهر عجزه عنه»[6].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ ٤ ق ٣ ص ١٠٩٣ – ١٠٩٤.

(٢) أبو المحاسن: حوادث الدهور جـ ٢ ص ٢١٩.

(٣) مكحلة = مدفع يرمى عنها بالنفط:

انظر القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٤٤ – سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ٤٥٣.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٢٦ – ٣٢٨.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٨١.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٨٨.

وعندما تولى السلطنة الملك العادل طومان باى، عمل على إصلاح ما أفسدته الأحداث بهذه المدرسة فأمر بترميمها[1].

وقد شاركت بعض المدارس الأخرى بدور بسيط فى هذه الحياة السياسية غير المستقرة إذ يذكر فى سنة ٨٧٢هـ (١٤٦٧م) وفى سلطنة الملك الظاهر أبى النصر سيف الدين بلباى أن حدثت فتنة بين الأمراء الخشقدمية وبين الأمير يشبك الفقيه وعندما توجهوا إلى منزل الأمير يشبك خرج ومعه مماليكه إلى المدرسة «الجاولية فقعد هناك وحفر خندقا عند المدرسة الصرغتمشية»[2] ثم أمر بتركيب مكحلة فى شباك المدرسة الجاولية، ونتيجة لهذه الفتن المستمرة واستباحة المماليك حرمة المدارس واتخاذ بعضها ميدانا للقتال أن تعرضت للسلب والنهب من المماليك وعامة الشعب. وغالبا ما كانوا ينهبون بيوت المماليك المهزومين ومالهم من مدارس ومساجد، ففى أثناء الصراع بين ايتمش ويشبك أن نهبت الزعر مدرسة أيتمش وأخذوا جميع ما كان فيها من البسط وغيرها من المنقولات ونهبوا جامع آق سنقر «ثم نهبوا مدرسة السلطان حسن»[3].

وفى أعقاب فتنة اقبردى سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٦م) نهبت المماليك الجلبان جميع ما كان بمدرسة السلطان حسن من «طشتخانات الأمراء ونهبوا بسط المدرسة والقناديل، وقلعوا شبابيك القبة التى بالمدرسة، وأخذوا رخامها.. ودخل الزعر والعبيد، فنهبوا القبة التى فى مدرسة السلطان حسن وأخذوا الرخام الذى بها والشبابيك والنحاس الذى بها الأبواب؛ من يومئذ تلاشى جمال هذه المدرسة»[4].

كذلك تعرضت المدارس للنهب من المماليك الجلبان خصوصا فى أواخر الدولة المملوكية فعندما كانت تتأخر جوامكهم يبادرون إلى الثورة وينزلون إلى المنازل والمدارس ينهبون ما تصل إليه أيديهم ففى سنة ٨٦٠هـ (١٤٥٥م) عندما تأخرت رواتبهم نزلوا إلى بيت ومدرسة الزينى يحيى الاستادار فنهبوها ونهبوا رباطه ودور جيرانه «ونهبوا ما بمدرسة الفخر بن أبى الفرج من تعلقات المدرسة وقماش الصوفية وغيرهم»[5]. وبلغ من بشاعة ما فعله المماليك ببيوت الناس

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٨٥.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٨٥.

(٣) انظر: أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٨٩.
المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ٩٨٧، ٩٨٨.
ابن حجر إنباء الغمر جـ ٢ ص ٩٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٢٨ - ٣٣٠.

(٥) أبو المحاسن: حوادث الدهور جـ ٢ ص ٢٧١.

والمدارس من نهب وسلب أن يصف أبو المحاسن هذا بقوله أنهم فعلوا «مالا تفعله الكفار مع المسلمين»[1]. ثم يعطينا ابن إياس صورة أخرى لما تعرضت له المدارس على يد المماليك الجلبان في سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م) أنهم «نهبوا بسط المدرسة الأبوبكرية والفخرية حتى أخذوا القناديل التى بها وكانت مصيبة شنيعة»[2].

الوظائف الخاصة بالمدرسة :

تختلف طبيعة هذه الوظائف طبقا للعمل المحدد لكل وظيفة، وتنقسم إلى وظائف إدارية خاصة بالإشراف على الوقف وتحصيله، والصرف منه على أصحاب الوظائف. والوظائف الفنية الخاصة بصيانة مبنى المدرسة ووظائف الخدمات الخاصة بتوفير أسباب المعيشة والإشراف على النظافة داخل المدرسة، هذا كله خلاف الوظائف التعليمية التى تشمل المدرسين والمعيدين بالإضافة إلى الطلبة حيث إن طلب العلم فى المدارس كان من جملة الوظائف.

أولا - الوظائف الإدارية :

على رأس النظام الإدارى للمدرسة كان الناظر على الوقف وفى بعض الأحيان يكون النظر للواقف نفسه أيام حياته ثم يحدد من يخلفه فى النظر سواء كان من ذريته أم من غيرهم. والواقع أن الأوقاف كانت المورد الرئيسى للصرف على المدارس وباقى المؤسسات العلمية، واستمرارها فى أداء رسالتها كان مرهونا بما تغله هذه الأوقاف لتكفية مصاريف المؤسسة العلمية ودفع مرتبات موظفيها[3] فإذا صودرت هذه الأوقاف أو خربت وأصبح الناتج من الوقف غير كاف لدفع مصاريفها كان ذلك بداية لتدهور هذه المؤسسة وتوقفها عن أداء رسالتها التى أنشئت من أجلها ويكفى دليلا على أهمية الأوقاف بالنسبة للمدارس ما ذكره المقريزى عن المدرسة القمحية بأنها قد أحاط بها الخراب «ولولا ما يتحصل منها للفقهاء لدثرت»[4] أما فى حديثه عن المدرسة الجمالية فيذكر أن شأن هذه المدرسة كان كبيرا «يسكنها أكابر الفقهاء الحنفية وتعد من أجمل مدارس القاهرة ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظواهرها وفى البلاد الشامية وقد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولاة أمرها وتخريبهم أوقافها وتعطل منها حضور الدرس والتصوف[5].

---

(١) أبو المحاسن: حوادث الدهور جـ ٢ ص ٢٧١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢١٨.

(٣) H. Rabie. Some financal Aspects of the Waqf. P. 24.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٣ انظر:

H. Rabie. Some financial. P. 14.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٩١.

وكان يشترط فيمن يتولى وظيفة النظر على الأوقاف أن يتمتع بالكثير من الصفات الخلقية كالأمانة والكفاية والعدالة وغير ذلك من الشروط «كما لا يجوز لفاسق ولا لخائن ولا لعاجز سواء كان النظر مفوضا إليه من الواقف أم من السلطان»[1] أن يتولى هذه الوظيفة. ويقوم الناظر على الوقف بتنفيذ شروط الواقف التى تعتبر اللائحة الإدارية الخاصة بالمدرسة والموظفين الذين جرى تعينهم فيها، وتنظيم عملية دفع الأجور وصرف التعيينات، وشروط العمل وشروط السكن سواء كان ذلك بالمدرسة أو الخانقاة أو غير ذلك من المؤسسات التى أنشئت بغرض التعليم فى تلك الفترة. وقد حددت حجة جوهر اللالا بعض مهام الناظر «أن يتولى عمل مصالح الوقف على ما جرت به العادة والذب عنه»[2].

وغالبا ما كان النظر لأحد أهل العلم من القضاة وكبار العلماء ولكن يبدو أن سوء تصرفهم وإهمالهم وعدم صيناتهم للأوقاف[3] ألجأ الناس إلى إسناد النظر إلى بعض من ذوى الجاه والسلطة. إذ يذكر أبو المحاسن «وصار غالب الناس إذا وقفا على مدرسة أو رباط أو ذرية أو غير ذلك بجعل النظر فيه للحاجب أو الدوادار أو الزمام ولا يجعله لمتعمم لما ثبت عندهم من التفاتهم إلى مصالح الأنظار فلا قوة إلا بالله»[4]. ويبدو أن بعض متولى النظر على الأوقاف كانوا يستغلونها لمصالحهم الخاصة متعللين بأنهم إنما ينفذون شروط الواقف إذ يذكر النويرى معللا الأسباب التى دعته إلى تدوين شروط وقف المدرسة الناصرية «ما وقع فى مثل ذلك من إخفاء كتب الأوقاف إذا تطاول المدد وبعد العهد بالأوقاف والشروط وتداولها النظار والمباشرون واستولوا على الأوقاف وغيروا المصارف عن شرط الواقفين»[5].

المباشرون: ومهمتهم عمل حسابات الوقف وضبطه واستلام المتحصل من الجباة وصرفه على الوجه الذى حدده الواقف، إذ تذكر حجة جوهر اللالا «.. المشهورين بأولاد الجيعان الذين قررهم الواقف المشار إليه مباشرين على الوقف المذكور على أن يتولوا أو واحد منهم ضبط ريع الوقف المذكور عمل حسابه وصرفه على مستحقيه على ما جرت به العادة فى مثل ذلك»[6].

---

(١) انظر: ابى سالم: العقد الفريد ص ١٨٢، ١٨٤.

(٢) حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق.

(٣) انظر: أبو المحاسن: حوادث الدهور جـ ١ ص ١٦، ١٧. السخاوى: الضوء اللامع جـ ٥ ص ١٥٢، ١٥٣. التبر المسبوك ص ١١٤، ١١٦.

(٤) أبو المحاسن: حوادث الدهور جـ ١ ص ١٧.

(٥) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ سنة ٧٠٣هـ.
انظر: ابن حجر: رفع الأصر ق ٢ ص ٢٥٦، ٢٥٩.

(٦) حجة وقف جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق.
انظر محمد أمين: تاريخ الأوقاف ص ٣٩٦.

الجابى: ويشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من «أهل الذمة والأمانة والنهضة والديانة»[1] ويقوم بجباية ريع الأوقاف وأن تكون عنده القدرة والقوة على تحصيلها وألا يترك قسطا إلى أن يستحق قسط آخر[2].

الصيرفى: يتولى صرف مستحقات الموظفين وقد يقوم الجابى أو المباشر بمهام هذه الوظيفة[3] ويشترط أن يكون الصيرفى من المشهورين بالأمانة[4].

الشادية: ويتولاها الشادى. ويشترط فيه أن يكون من أهل الخير والأمانة والعفة والنهضة. وهذه الوظيفة متعددة الجوانب إذ إن صاحبها يعتبر مشرفا عاما على الأقسام الثلاثة، إذ إنه يقوم بالإشراف على العمارة وصيانتها، والإشراف على العمال الفنيين والمعاونة فى جباية ريع الأوقاف وعمل مصالحها. ثم إنه يقوم بالإشراف والتفتيش على أرباب وظائف الخدمات بالمدرسة وحثهم على العمل[5]. إذ تذكر حجة جوهر اللالا «.. على أن يتولى استخراج ريع الوقف من أربابه والاجتهاد فى عمل مصالح الوقف ومستحقى ريعه وعمل ما جرت به عادة المشدين»[6] كما تذكر حجة السلطان قايتباى «وعلى أن الشادى المشار إليه يتولى إعانة جباة الأوقاف على استخراج ريع الأوقاف المذكورة وعمل مصالح الفلاحين والزارعين بأراضى الأوقاف المذكورة مما فيه مصلحة الوقف العايد نفعها على مستحقيه»[7].

---

(١) حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق.

انظر: حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف. حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٤٥.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية. المجلد الثانى تحقيق ٦٨٩ – محمد أمين: تاريخ الأوقاف ص ٤٠٥ – ٤٠٨.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية – المجلد الثانى تحقيق ٦٨٩، ٦٩٠ – انظر: حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق.

(٤) حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٤٥.

(٥) انظر: عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية. المجلد الثانى تحقيق ٦٤٠، ٦٧٥ – محمد أمين – تاريخ الأوقاف ص ٣٩٩ – ٤٠٠. حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق – حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف – حجة السلطان حسن بن قلاوون ٨٨١ أوقاف ص ٤٥٩. حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق. حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٤١.

(٦) حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق.

(٧) حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٤١.

كاتب الغيبة: ويشترط أن يكون من أهل الأمانة. ويقوم بكتابة أسماء المتخلفين عن الحضور للمدرسة من سائر الموظفين فإذا كانت غيبة الموظف بدون عذر قطع عنه المعلوم عن الأيام التى تغيبها[1]. أما بالنسبة لغيبة الطلبة فغالبا ما يقوم بها النقيب[2].

ثانيا - الوظائف الفنية :

ومهمة أصحاب هذه الوظائف القيام بالمحافظة على مبنى المدرسة وصيانته، وصيانة ما يخصها من الأوقاف وعلى رأس هذه الوظائف.

المعمار: وهو المهندس المختص بأعمال الصيانة وتفقد المبانى وإصلاح ما يحتاج للإصلاح فيها والإشراف على العمال والفعلة أثناء عملية البناء أو الترميم وإحضار ما تحتاج إليه من المون والآلات وغير ذلك إذ تذكر حجة قايتباى «ويصرف لرجل من أهل الخير والأمانة يكون معمارا بالأوقاف المذكورة أعلاه يحضر العمارة فى الوقت المذكور ليتعهد الصناع فى العمل ويحثهم عليه ويمنعهم من البطالة وغير ذلك مما جرت العادة فى ذلك..»[3].

المرخم: ويقوم بعملية تركيب الرخام وصيانته، وإصلاح ما يتطلب ذلك من الرخام الذى بالجدران أو أرضية المدرسة وفسقيتها. إذ تذكر حجة قانى باى الرماح «وما يصرف لمعلم من المرخمين ماهر فى صناعته على أن يتعهد رخام المدرسة المذكورة بالترميم فى كل وقت والإصلاح عند الحاجة»[4].

---

(١) انظر: عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية. المجلد الثانى الحجة ٨٨٣ ص ٤٦.

(٢) انظر حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق.

(٣) حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٣٣.

انظر: حجة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف. محمد أمين: تاريخ الأوقاف ص ٤١٦، ٤١٧. عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية المجلد الثانى الحجة ٨٨٣ ص ٤٩، تحقيق ٦٩٣.

(٤) حجة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف. انظر: حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٣٣. حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف. حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق. عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية . المجلد الثانى تحقيق الحجة ٨٨٣ ص ٤٩، تحقيق ٦٩٤..

السباك: ومهمته صيانة مجارى المياه بالمدرسة وإزالة العوائق التى تسدها. إذ تذكر حجة السلطان قايتباى «ويصرف لرجل سباك يتولى عمل ما يحتاج إليه من ترميم أقصاب وميزاريب ومجارى بالأوقاف المسقفات المذكورة التى بالقاهرة المحروسة وبالصحراء مما جرت عادة مثله بعمله فى ذلك[1]».

النجار: ويبدو أن مهمته الأساسية هى صيانة السواقى المعدة لرفع الماء لما لها من أهمية فى حياة المقيمين بالمدرسة. إذ تذكر حجة قانى باى الرماح «.. ويصرف لنجار عارف بإدارة السواقى على أن يتعهد الساقيتين المذكورتين بالإصلاح والترميم والشد فى كل وقت عند الحاجة إلى ذلك»[2].

ثالثا - وظائف الخدمات:

أولا: الوظائف الخاصة بالمطبخ:

ومهمة أصحاب هذه الوظائف شراء ما يحتاج المنزلون بالمدرسة من الطعام وإعداده لهم وتفرقته عليهم.

الطباخ: وهذه الوظيفة من الوظائف النادرة فى المدارس، وكان أصحاب المدارس فى بادئ الأمر يؤجرون الطباخين لطهى ما يرغبون فى مدارسهم. إذ تذكر حجة السلطان حسن بن قلاوون «.. فى كل ليلة جمعة ثمن خمس قناطير بالقنطار المصرى من لحم الضأن وثمن عشرين قنطار من الخبز القرصة وثمن ما يحتاج إليه من أرز وعسل وحبوب وحب رمان وغير ذلك ودهن وحطب وتوابل وأجرة من يتولى طبخ ذلك وتفرقته»[3] أما الطباخ كموظف دائم بالمدرسة فلم يوجد إلا فى مدرسة السلطان برقوق. إذ تذكر الحجة أن يرتب الناظر، «شخصا من الصوفية المذكورين يكون طباخا بالمطبخ المشار إليه فيه على أن يتولى طبخ ما يذكر فيه لأرباب الوظائف المذكورين فيه على الوجه الآتى ذكره فيه على العادة فى مثل ذلك ويصرف له فى كل شهر عشرين درهما مضافا لما هو مرتب له عن وظيفة التصوف»[4].

---

(١) حجة وقف السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٣٣، ١٣٤.

انظر حجة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف - حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف - عبد اللطيف إبراهيم. دراسات تاريخية وأثرية المجلد الثانى الحجة ٨٨٣ ص ٤٩، تحقيق ٦٩٤.

(٢) حجة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف.

انظر: عبد اللطيف إبراهيم. دراسات تاريخية وأثرية. المجلد الثانى الحجة ٨٨٣ ص ٥٠، تحقيق ٦٩٦.

(٣) حجة السلطان حسن بن قلاوون ٨٨١ أوقاف ص ٤٦٣ - انظر ص ٤٦٨، ٤٦٩ نفس الحجة.

(٤) حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق. وكانت مدرسة السلطان برقوق تجمع بين طلبة العلم والصوفية ولذلك كان معظم من تولوا وظائف الخدمات بها من الصوفية.

ويساعد الطباخ واحد أو أكثر من الساعدين يسمى حوائج كاش، واختصاصات صاحب هذه الوظيفة القيام بشراء احتياجات الطبخ وإحضارها للمدرسة ويساعد الطباخ فى تأدية عمله والقيام بعملية النظافة داخل المطبخ[1]. ويقوم بالإشراف على المطبخ أحد المشرفين تكون مهمته الإشراف على توزيع الطعام على مستحقيه[2].

ثانيا – الوظائف الخاصة بالساقية والمزملة:

وكان توفير الماء للمدرسة يمر بعدة مراحل منها نقل الماء من النيل إلى بئر المدرسة لتخزينه بها ثم ترفعه الساقية إلى الفسقية. من ذلك ما جاء بحجة السلطان برقوق «وأما الفسقية التى بدور القاعة فوقفها لاستقرار الماء الواصل إليها من البير والساقية التى ذكرهما لينتفع بذلك أرباب الوظايف بهذا المكان والمقيمين والمترددين إليه من ساير المسلمين أجمعين فى وضوئهم ونظافتهم انتفاع مثلهم بمثل ذلك على الوجه الشرعى»[3] ويشترك فى عملية توفير الماء للعاملين بالمدرسة والمترددين إليها عدد من العمال المأجورين وبعض الموظفين الدائمين.

فإحضار الماء من النيل إلى المدرسة كان يقوم به بعض الأجراء الذين يكلفهم الناظر بذلك ويتناولون أجرتهم من قيمة ما يخصص لذلك من الوقف، من ذلك ما تذكره حجة السلطان برقوق «ويصرف الناظر أجرة نقل ماء عذب من النيل المبارك وإلى المزملة برسم شرب أرباب الوظايف بهذه المدرسة المذكورة ومن يرد إليها من ساير المسلمين وما يحتاج إليه المطبخ من الماء على العادة فى ذلك بحسب الاحتياج[4].

أما الموظفون الدائمون فمنهم سواق الساقية وعليه أن يقوم بالعناية بالدواب وسقيها وعلقها وإدارتها والعناية بالساقية واحتياجاتها من ذلك ما جاء بحجة جوهر اللالا «ويصرف كل شهر.. لرجل من أهل الخير والدين يكون سواقا بالساقية المذكورة أعلاه على أن يتولى إدارة الساقية المذكورة وإجراء الماء من البير إلى الحاصل ثم إلى المدرسة المذكورة وعلى فسقيتها وخلاويها والمستحم والحوض المعد لسقى الدواب»[5].

---

(١) انظر حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق.

(٢) انظر حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق.

(٣) حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق.
انظر حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف.

(٤) حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق.
انظر حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق.
عبد اللطيف إبراهيم: نصان من وثيقة الأمير صرغتمش ص ٣٢.

(٥) حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق.
انظر حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق.
عبد اللطيف إبراهيم: نصان من وثيقة الأمير صرغتمش ص ٣٢.

المزملاتى: ويقوم بتسبيل الماء على من يحضر إلى المدرسة والطواف به على المتصدرين والطلبة فى أوقات الدراسة، ويشترط فى المزملاتى أن يكون من أهل الخير والأمانة نظيفا سالما من العاهات. إذ تذكر حجة المؤيد شيخ «ويرتب رجلين جيدين نظيفين من أهل الخير والأمانة عارفين بما يحتاج المزملاتى يكونان مزملاتين»[1] وتحدد الحجج الأوقات التى يقوم فيها المزملاتى بتسبيل الماء وخصوصا فى شهر رمضان فيكون التسبيل من الغروب إلى بعد صلاة التراويح ويقوم المزملاتى بالإضافة إلى ذلك بتنظيف المزملة والأوانى والآلات المستخدمة بها[2].

ثالثا - الوظائف الخاصة بالنظافة والحراسة:

الفراشون: يقوم الفراشون بعملية النظافة داخل المدرسة من كنس ورش وتنظيف الفرش ونفضها. من ذلك ما تذكره حجة السلطان برقوق «ويرتب الناظر ستة أنفس من الصوفية المذكورين فيه يكونون فراشين بالمدرسة المذكورة أربعة منهم يقومون بكنس المدرسة والقبة المذكورتين فيه وفرشها.. والاثنان الباقيان أحدهما يقوم بكنس بيوت الطلبة وغسلها وتنظيفها على العادة فى ذلك والثانى منهما يقوم بكنس بيوت الطلبة والصوفية العلوية والسفلية والقاعات التى بالمدرسة المذكورة وما هو من حقوق ذلك بالتناوب على العادة فى ذلك[3].

القومة: ويتولون الإشراف على إنارة المدرسة والمئذنة وتعمير القناديل ووقودها وطفيها وعمل الصيانة اللازمة لها من المسح والتنظيف. وتنظيف السلاسل التى تعلق فيها القناديل من ذلك ما تذكره حجة السلطان برقوق «ويرتب الناظر شخصين من الصوفية المذكورين فيه يكونان قايمين بالمدرسة المذكورة فيه يتوليان غسل ما بهذه المدرسة من القناديل والسلاسل ومسحها وتعميرها ووقودها وطفيها وتعمير قناديل المئذنة فى شهر رمضان وليلة النصف من شعبان وصبحة عيد الفطر ويفعلان ما يفعل أمثالهما فى مثل ذلك»[4].

---

(١) حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف

(٢) انظر حجة السلطان برقوق٥١ محفظة٩ دار الوثائق. حجة السلطان حسن ابن قلاوون٨٨١ أوقاف ص٤٥٣، ٤٥٤. حجة جوهر اللالا٨٦ محفظة١٤ دار الوثائق - حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف - حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٣٨ - حجة السيفى قلمطاى ٦٨ محفظة ١١ دار الوثائق ٦٦٩ انظر النص بالحجة ٨٨٣ ص ٤٨.

محمد أمين: تاريخ الأوقاف ص ١٨١، ١٨٧.

(٣) حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق.

انظر حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف. النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ سنة ٧٠٣هـ.

(٤) حجة السلطان برقوق ٥١ ٩ دار الوثائق.

انظر حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف. النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ سنة ٧٠٣هـ.

البواب: ومهمة البواب ملازمة باب المدرسة لصيانتها وحفظ ما بها من المتاع ومنع غير المرغوب فيهم من أرباب التهم والفساد وأصحاب الحرف الدنيئه من دخولها. ويشترط فى البواب أن يكون يقظا أمينا «ولا يترك الباب إلا لعذر ويستخلف مكانه زمن غيبته»[1] ومن ذلك ما تذكره حجة السيفى قلمطاى «ويرتب رجلا من أهل الخير والدين يكون بوابا بالمدرسة يتولى فتح المكان وغلقه عند الحاجة إلى ذلك ويلازم الجلوس بباب المكان المذكور فيه لحفظه ومنع من يقصد الدخول إلى المكان المذكور من أرباب التهم والفساد وحفظ ما بالمكان من الحواصل ومنع من يقصد الدخول إلى المكان بنعله بشرط أن يكون ما يمشى عليه المصلى طاهرا[2]..

وفى بعض الأحيان نجد أن البواب يقوم بوظيفة البوابة والفراشة والنظافة إن تمكن من لقيام بذلك بمفرده فإن تعذر فيمكن زيادة عدد الأفراد[3].

وعلى رأس هذه الوظائف يقوم الشادى كما أشير إلى ذلك بتعهد أصحاب هذه الوظائف بالإشراف ليقوم كل واحد منهم بما يتطلب منه عمله بدون إهمال. على أننا نجد وظيفة أخرى تماثل وظيفة الشادى ولكنها ربما تتعلق بالإشراف على أرباب الوظائف أكثر من الشادى من ذلك ما تذكره حجة السلطان قايتباى «ويصرف لرجل يكون مشرفا بالوقوف المذكور وبالجامع المذكور على أن يتولى حث أرباب الوظائف التى بهذا الوقف على العمل بها وتنهيضهم فى ذلك وعمل مصالح الوقف المذكور فيه على عادة من يتولى مشارفة الأوقاف فى مثل ذلك»[4].

رابعا - الوظائف الخاصة بالرعاية الطبية :

لم يهمل مؤسسو المدارس الرعاية الطبية الشاملة للمدرسين والطلبة ومن معهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة سواء كانوا من المقيمين بالمدرسة أو المقيمين خارجها، على أن هذه الرعاية لم

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ سنة ٧٠٣هـ.

(٢) حجة السيفى قلمطاى ٦٨ محفظة ١١ دار الوثائق.

انظر. حجة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف.

حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف.

حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق.

حجة السلطان حسن بن قلاوون ٨٨١ أوقاف ص ٤٥٥.

النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ سنة ٧٠٣هـ.

عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية المجلد الثانى تحقيق ٦٣١.

(٣) حجة السيفى قلمطاى ٦٨ محفظة ١١ دار الوثائق.

(٤) حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ ص ١٣٤ أوقاف.

انظر: محمد أمين: تاريخ الأوقاف ص ٤٠٣.

تشمل كل المدارس ولكنها وجدت خاصة بالمدارس الكبيرة التى قام بإنشائها السلاطين. فمن ذلك ما جاء بحجة السلطان حسن بن قلاوون «ويرتب الناظر رجلين مسلمين أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان والثانى عارف بصناعة الكحل على أن كلا منهما يحضر فى كل يوم إلى المكان المذكور ويداوى من يحتاج إلى المداواة من أرباب الوظايف والطلبة والمقيمين بالأماكن المذكورة أعلاه ومن يحضر إليها من الطلبة وأرباب الوظايف ممن ليس له سكن بالمكان ومن المقيمين بالأماكن المذكورة أعلاه توجه الطبيب إليه فى مكان إقامته ولا يكلف المريض الحضور إلى الطبيب.. ويرتب الناظر رجلا جرائحيا مجبرا يحضر فى كل يوم إلى المكان المذكور ويفعل نظير ما شرط على الكحال والطبيب بأعاليه» [1].

(١) حجة السلطان حسن بن قلاوون ٨٨١ أوقاف ص ٤٥٧ ، ٤٥٨.

انظر: حجة السلطان برقوق ٥١ محتفظة ٩ دار الوثائق. حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف. عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية. المجلد الثانى الحجة ٨٨٣ ص ٤٦، تحقيق ٦٥٤.

obeikandl.com